سان ستيفانو

San Stefano

الكتاب: سان ستيفانو
المؤلف: ريم أبو عيد
عدد الصفحات: ٢٦٤
القياس: ١٤x٢٠
طبعة إلكترونية
الناشر: **ريم أبو عيد**
الإشراف العام: **ريم أبو عيد**
تصميم الغلاف: مروة فتحي
مراجعة لغوية وتدقيق: صالح شرف الدين – رائد قديح

جميع الحقوق محفوظة للكاتبة
ولا يجوز طباعة أو نشر أو اقتباس أي جزء من الرواية
دون موافقة كتابية منها

رواية

سان ستيفانو

(الجزء الثاني من متروبول)

ريم أبو عيد

إلى تلك الأرواح العالقة

بين الحلم والحقيقة

بين الزمان والمكان

بين الواقع والخيال

بين اليأس والرجاء

بين حياة مضت وأخرى لم تأت

أهدي هذه الرواية

ولحياة الروح بقية..

وللأمكنة أيضًا ذاكرة تبعث الماضي من مرقده وتوقظ فينا الحنين.. وبعض الماضي يتربص بنا كلص محترف يسرق منا سكينة أيامنا دون أن نلحظ أو نحتاط.. أماكن نشتاقها وأخرى تلفظنا.. بعضها نعرفه وبعض منها يجحدنا.. وتظل هناك أمكنة تعيدنا إلى سيرتنا الأولى برغم تحولات الفصول والأزمنة..

من رواية "متروبول"
ريم أبو عيد

(١)

"أجلس مكبل القدمين في غرفة صغيرة مظلمة.. أسمع صوت أقدامهم الغليظة وهي تمر من أمام باب الغرفة ذهابًا وإيابًا في خطوات منتظمة رتيبة.. يكاد هذا الصوت الوحيد الذي يشق سكون الليل أن يفتك برأسي كوحش جائع.. يعاودني صوت صراخها قبل أن تصمت إلى الأبد.. يلوح أمام عيني وجهها الشاحب والحياة تغادره آخذةً معها كل لحظات الفرح في أيامي المتبقية بعدها.. أدفن وجهي بين يدي وأنكفىء مجهشًا بالبكاء.. ينفتح باب الغرفة محدثًا صريرًا مزعجًا.. لا أخاف الموت بل أرغبه حتى ألحق بها.. يأمرني الجندي أن أنهض وأمضي معه إلى غرفة التحقيق.. يجلس الكولونيل المكلف بالتحقيق معي خلف طاولة خشبية

صغيرة مسلطًا عليها ضوء المصباح الوحيد المتدلى من سقف الغرفة.. يأمرني بالجلوس على المقعد المواجه لمقعده.. أجلس دون أن أنطق.. يعيد على مسامعي ذات الأسئلة التي أمطروني بها سابقًا كوابل رصاص لا يحيي ولا يميت.. أنكر معرفتي بالأمر كما أنكرته سابقًا.. لم أكن أعرف بأن فتاتي يهودية.. كل ما أعرفه عنها أنها فتاة يونانية تدعى سارة قسطنطين تعيش مع أمها التي تعمل بالحياكة بعد أن هجرهما الأب منذ فترة طويلة.. لا أعرف شيئًا مطلقًا عن عائلة موسى سمعان.. أو عن علاقتها بذلك الشخص الذي يدعى دانيال سولومون.. لم يعد لدي ما أقوله في هذا الشأن.. يدخل جندي إلى غرفة التحقيق مسرعًا.. يَسِرُ بخبرٍ ما في أذن الكولونيل.. ينهض الكولونيل من مقعده وعلامات الخيبة ترتسم جليةً على وجهه.. ينظر إلي والغضب يُطِلُ من عينيه كشمس الصحراء الحارقة.. يصيح بوجهي.. أسروا من

جنودنا الآلاف.. خسرنا معركة العلمين.. الويل لكل خائن.. لا أبالي بكل ما يقوله.. أريد أن أغمض عيني للمرة الأخيرة لأذهب حيث ذهبت هي.. أظل صامتًا كصنم حجري.. يسحب مسدسه من حزامه.. يهم بإطلاق الرصاص على رأسي.. أغمض عيني لعلي أرحل إليها.. يدخل أحد الجنرالات إلى الغرفة وهو يصيح بالجميع.. علينا أن نتحرك سريعًا.. يعطي أوامره للكولونيل بأن يطلق سراحي لتأكدهم من عدم معرفتي بحقيقة أمر فتاتي.."

ألقوا به في الصحراء وحيدًا.. غائبًا عن الوعي.. مر يومان وهو على تلك الحالة بين الحياة والموت إلى أن عثر عليه بعض الأشخاص الذين مروا بسيارتهم في المكان.. حملوه معهم وذهبوا به إلى إحدى المستشفيات.. كان في النزع الأخير.. سارع الأطباء إلى إسعافه إلى أن اطمأنوا أنه لا يزال على قيد

الحياة.. ولكنه لم يفق من غيبوبته بعد.. وضعوه بمفرده في إحدى الغرف وأوكلوا رعايته إلى ممرضة أرمينية إسمها إيفيلين..

ظل على حالته لأيام طويلة.. كانت أيفيلين تراقبه باهتمام آملة في أن يتحسن بعض الشيء ولكنه بقي في غيبوبته وكأنه يأبى أن يفيق منها.. بمرور الوقت تحولت مراقبتها له إلى اهتمام.. وتحول الاهتمام شيئا فشيئا إلى شغف.. كانت تقضي ساعات طوال إلى جواره تتأمل ملامحه.. أعجبتها وسامته.. نسجت في مخيلتها حكايات كثيرة عنه.. ألفته وألفت وجودها معه.. حتى أنها كانت تقص عليه بعض أسرارها التي لا يعرفها أحد.. حتى ذلك اليوم الذي كانت على وشك أن تفقده.. أتت إلى المستشفى كعادتها في الصباح الباكر واتجهت مباشرة إلى غرفته.. هالها ما رأته من تجمع للأطباء

في غرفته.. وما عرفته من أن مريضها الأثير كاد أن يفارق الحياة منذ لحظات.. أسرعت نحوه في لهفة وجزع.. وضعت رأسها على صدره لتتأكد من أن قلبه لا يزال ينبض.. وانسابت دموعها في صمت..

(٢)

كانت الساعة قد تخطت الثانية صباحًا وهي لا تزال تتمدد في سريرها تحملق في سقف الغرفة.. كان القلق يستبد بها بعد أن أخبرها الطبيب أن حالته قد تدهورت بالأمس.. مضى شهر على تلك الحادثة.. ولا يزال غائبًا عن وعيه.. ولا تزال في انتظار عودته بالرغم من فتور العلاقة بينهما مؤخرًا إلا أنها لم تزل عالقة بتلك الذكريات التي جمعتهما في الماضي والحاضر معًا.. حاولت كثيرًا الفكاك من أسرها والتحرر من قيودها ولكنها في كل مرة كانت تغرق في تفاصيلها أكثر وأكثر.. استسلمت للنوم أخيرًا.. كان نومًا متقطعًا.. انتابتها كوابيس مزعجة.. رأته يجلس وحده في زورق خشبي صغير وسط بحر أمواجه عاتية تتقاذف الزورق وتضربه بشدة.. يتحطم

الزورق ويسقط هو في الماء ويبتلعه الموج بغتة.. هبت مفزوعة من نومها والعرق يتصبب من جبينها.. كانت الساعة تقترب من السادسة صباحًا.. شعرت برجفة تجتاحها.. وبرغبة في البكاء.. تراءت أمام عينيها تلك الأيام الخوالي التي جمعتها به في هذه الحياة.. كانت البداية مبهرة كمثيلاتها من البدايات.. ولكن بعد فترة من الوقت تسرب الملل إلى العلاقة وربما أيضًا الخذلان.. كلاهما كان يبحث عن شخص آخر في الآخر.. يفتش عن ماضٍ لم يعد له وجود.. يستحضر ذكريات لم يبق منها سوى أشباح عابرة.. فلتعترف إذن لنفسها أن ما كان بينهما لم يكن حبًا كما توهما.. لم يكن سوى حنين لتلك الذكرى الغابرة التي جمعتهما ذات حياة سابقة.. والتي كدرت صفو حاضرها وسجنتها في بئر سحيق من الوجع والندم.. تعلم أنه لم يعد يحتل أية مكانة حقيقية في عالمها وفي قلبها على حد السواء ولكنها لم تكن

تتمنى له تلك النهاية المأساوية على أية حال.. علمت من صديقه سليم أن تحقيقات النيابة أشارت إلى وجود شبهة جنائية في الحادثة التي وقعت له ولكنها لم تحاول معرفة المزيد من التفاصيل.. زارته في المستشفى مرات قليلة.. كانت إحداها بصحبة ياسر زهران.. ذلك الرجل الذي لا يزال غامضًا بالنسبة لها بالرغم من محاولاته الدؤوبة التي لا تنتهي بالتودد إليها.. شيء ما بداخلها ينبئها بأن تكون حذرة في علاقتها به.. حدس مبهم ولكنها تعرف يقينًا أنه مبصر.. تساءلت كثيرًا بينها وبين نفسها هل كان ظهور ياسر المفاجيء في حياتها أحد أسباب خلافاتها مع عمر.. أم أن عمر كان يتحجج بحجج واهية كعادته في الفترة الأخيرة.. لم تفهم أبدًا سر تلك العداوة الخفية التي كانت بينه وبين ياسر والتي كانت تظهر جلية في بعض المواقف حتى وإن جاهد الاثنان لإخفائها.. ظلت راقدة في فراشها ساعة بأكملها

تتقاذفها أفكارها بين الشك واليقين.. ثم قررت الإتصال بنديم نصار.. كان يكفي أن تتذكره لتبتسم وتشعر بالسكينة والسلام النفسي.. تعلم أنه يستيقظ مبكرًا.. ربما التقته أيضًا لتناول القهوة الصباحية معه كما اعتادا من حين لآخر..

(٣)

وضعت الحرب أوزارها ولكن نفوس من عايشوها لم تضع عنهم ذكرياتها بعد.. الخوف هو ما خلفته في تلك النفوس.. حاولت إيفيلين وهي في طريقها من المستشفى إلى بيتها أن تنفض عن رأسها غبار تلك الأيام العصيبة التي عاشتها تحت وطأة غارات قوات المحور على الإسكندرية.. تسارعت نبضات قلبها وهي تمر من ذات الشارع الذي شهدت فيه مصرع شقيقها الوحيد سيفان.. كان يصغرها بعامين.. وكان مفعمًا بالحياة.. الحياة التي سلبها منه هؤلاء المجرمون.. تباطأت في سيرها عندما اقتربت من فندق سان ستيفانو.. وابتسمت بأسى.. التقت فيه ذات مرة حبيبها كارلوس الذي كان يعمل نادلًا به قبل أن يتم توقف العمل

بالفندق بسبب الحرب.. أحست برعشة خفيفة تسري في أوصالها.. أحكمت إغلاق معطفها وسارعت في مشيها وكأنها تفر من شبح مخيف يطاردها بجنون موتور..

كادت تصل إلى منزلها عندما اصطدمت بأحدهم.. كان الظلام يخيم على الشارع فلم تتبين ملامحه في أول الأمر.. ظلت تنظر إليه بدهشة غير مصدقة أنه هو.. كانت ملامحه تنطق باللهفة والاشتياق.. ضمها إليه دونما حديث.. أفلتت نفسها من بين ذراعيه وظلت تحدق في وجهه بعينين خاليتين من أي تعبير.. ثم عادت وعانقته بذهول وانفجرت في البكاء.. حاول أن يهدىء من روعها.. ولكنها استمرت في النحيب وهي تحيط عنقه بذراعيها تتشبث به كمن وجد طوق نجاة في بحر متلاطم يكاد أن يبتلعه.. ضمها إليه بكل ما أوتي من قوة ثم قبلها قبلة طويلة أعادتها لتلك الأيام التي

عاشتها معه قبل أن تفرق الحرب بينهما.. سارا معًا حتى وصلا إلى بيتها..

كانت تعيش بمفردها منذ مصرع شقيقها.. وكانت المرة الأولى التي يبيتا سويًا في منزلها.. اعتادت دائمًا أن تذهب هي إلى منزله في أيام العطلات الأسبوعية وبعد أوقات عملها.. كانت تمتلك مفتاحًا خاصًا بها لشقته.. وظلت تحتفظ به بعد سفره من الإسكندرية بعدما توقف العمل بفندق سان ستيفانو واضطر العاملون به إلى مغادرته.. لم يتحمل كارلوس البقاء في المدينة آنذاك.. قرر الرحيل.. ذهب إلى اليونان مسقط رأسه علّه يجد عملًا مناسبًا على وعد منه لها أن يعود ويصطحبها معه إلى هناك.. مرت شهور طويلة وهي في انتظاره.. انقطعت عنها كل أخباره.. حتى ظنت أنه نسيها.. أسقطته من حساباتها مرغمة.. عاشت وحيدة تقضي جل

وقتها بين عملها حيث كانت تعمل في متجر للملابس في ذلك الوقت وبين رعايتها لأخيها والاهتمام بشؤونه.. حتى ذلك اليوم المشؤوم الذي قُتل فيه سيفان أمام عينيها.. أحست بعد موته ورحيل كارلوس بأنها فقدت كل معاني الحياة بفقدانهما.. كادت أن تسقط في بئر الاكتئاب.. ولكنها قاومت الوحدة والوحشة بالسهر والرقص.. تنقلت بين أحضان الرجال.. كانت تعيش لياليها مثل تمثال شمعي بلا روح أو قلب.. حتى ذلك اليوم الذي نظرت لوجهها في المرآة ذات صباح وأحست أنها لم تعد تعرف نفسها.. فقدتها هي الأخرى عندما ضلت الطريق.. بكت كما لم تبكِ منذ مقتل سيفان.. اعتزلت الجميع.. ظلت أيامًا حبيسة منزلها رافضة للطعام والشراب حتى سقطت من الإعياء.. جاءها جيرانها بطبيب.. عالجها من ضعف بدنها ولكنها لم تكن قد شفيت بعد من ندوب روحها.. قصت عليه قصتها بكل

التفاصيل الموجعة.. طلب منها العمل في ذات المستشفى التي يعمل بها.. وافقت.. أحست أن شفاءها سيكتمل بمساعدتها للغير.. وأن خلاصها مرهون بتخفيف آلام الآخرين.. أصبحت تقضي معظم وقتها متنقلة بين أسرة المرضى والمصابين.. تطيب جروح هذا.. وتسكن وجع ذاك..

لم يدق الحب باب قلبها مرة ثانية بعد رحيل كارلوس وغيابه المباغت عنها.. حتى رأت ذلك الرجل المجهول الذي أتى بعض المارة يحملونه وهوفاقد الوعي.. لم تعرف اسمه حتى لحظتها تلك.. ولكنها شعرت بما يحمله قلبه من هموم وما تنوء به روحه من أثقال.. مر كل ذلك أمام عينيها كشريط سينمائي وكارلوس يقبلها.. تسارعت أنفاسها وأزاحته عنها وجرت من أمامه وهي تبكي.. لم تكن تعرف

أتبكي نفسها التي ضاعت منها ولم تعد.. أم تبكي الشهور الطوال التي أسقطها غيابه من روزنامة عمرها.. أم عودته المفاجئة التي حتمًا ستربك كل ترتيباتها التي كانت قد أعدتها لهذا الغريب الذي يرقد في المستشفى والذي تسلل إلى كيانها دون أن تدري..

(٤)

لا يزال ممددًا على فراشه في تلك الغرفة البيضاء فاقدًا وعيه.. كل شيء حوله يتشح بالأبيض وكأنه إعلان مسبق بأن من يدخل هذه الغرفة تنسحب منه الحياة بجميع ألوانها شيئًا فشيئًا.. كانت الساعة قد تجاوزت السابعة والنصف صباحًا بقليل حين فتحت الممرضة باب الغرفة ودلفت إليها وهي تحمل بعض العقاقير وتتبعها فتاة في أواخر العشرينات من العمر.. يبدو عليها القلق والحزن.. التفتت الممرضة إلى الفتاة وابتسمت لها ابتسامة مرتعشة..

- تعلمين أنني أخالف التعليمات بالسماح لكِ بزيارته قبل مواعيد الزيارة المعتادة.. ولكني أقدر قلقك عليه..

بادلتها الفتاة الابتسامة بأخرى مقتضبة ويائسة وهي تخرج من حقيبة يدها ورقة نقدية من فئة المائة جنيه وتدسها في يد الممرضة..

- أقدر لكِ تمامًا ما تفعلينه من أجلي ومن أجله..

أحكمت الممرضة قبضتها على الورقة النقدية ثم وضعتها سريعًا في جيبها واتجهت ناحية باب الغرفة وغادرتها وهي تغلق الباب خلفها بحرص شديد.. جلست الفتاة بجوار فراش ذلك المريض على المقعد الوحيد الموجود بالغرفة وطافت بعينيها في وجهه وكأنها تحتضنه بهما.. أمسكت كفه وربتت عليها وابتسمت مشجعة وهي تهمس له بأنه سيجتاز هذه المحنة.. ثم أخرجت من حقيبة يدها روايته الأخيرة التي تحمل عنوان "متروبول".. وبدأت في قراءة فقرة منها

بصوت خفيض متبتل كأنها ترتل صلاة ناسك متعبد في محراب الأبجدية..

"تتأبط ذراعي بزهو كعادتها.. ترتدي فستانًا بلون النبيذ ينساب شعرها البني على كتفيها كشلال عطر يُسكرني بغير خمر.. عيناها ذلك المساء كانتا تبوحان بسرها.. غارقة هي في الحب حتى أذنيها.. وأنا ملاحها وبرها.. نسير في شارع سعد زغلول متعانقين.. تدندن بذلك اللحن الانجليزي.. أهمس في أذنها بأنها ستكون دائما في مأمن ما دامت معي.. نصل إلى مطعم سانتا لوتشيا أتقدمها خطوة واحدة أدفع الباب الصغير الخشبي وأدعوها للدخول بحركة مسرحية.. وكأني أمنحها تذكرة لدخول الجنة - جنتي أنا - يبدو المطعم خاليا هذا المساء.. مما يزيدني انتشاءً.. يحيينا النادل بإيماءةٍ من رأسه وابتسامة مرحبة.. ترحب بنا الفتاة التي تجلس أمام البيانو

بنغماتها التي تعزفها للمقطوعة الكلاسيكية الحالمة سوناتا ضوء القمر للموسيقار النمساوي لودفيج فان بيتهوفن.. أمسك بيد فتاتي لأصعد بها إلى الطابق الثاني.. لون الستائر والمقاعد اللازوردي يتناغم مع لون النوافذ والسلالم الخشبية.. كل ما في هذا المساء يثير شهيتي لأن أذيبها بين ذراعي كما حدث في تلك الليلة في فندق متروبول.. هي لا تزال تدندن بذات اللحن (أنا في حالة مزاجية للحب) I'm in the mood for love.. يثيرني عطرها الباريسي.. أغمض عيني لكي أتذوقه بعين خيالي.. يتسلل صوتها الهامس إلى أعصابي.. يمضي المساء بنا والعشق ثالثنا...."

أغلقت غادة الرواية وتنهدت بأسى وهي تنظر إلى عمر سراج الممدد أمامها على الفراش كجثة هامدة.. وظلت تتأمله بحب.. تذكرت أول لقاء لهما.. كانت قد قرأت روايته

متروبول وأعجبت بها أيما إعجاب.. وازداد إعجابها واندهاشها في الوقت ذاته حين عرفت أن الرواية مستوحاة من قصة حقيقية عاشها عمر سراج نفسه كما صرح هو في أحد لقاءاته التلفزيونية.. حرصت على حضور الندوة التالية للرواية والتي أعلن عنها على صفحته على موقع التواصل الاجتماعي والتي أقامها في إحدى المكتبات الكبرى في القاهرة.. ذهبت إلى الندوة وهي في كامل أناقتها.. كانت تحفظ فصول الرواية عن ظهر حب تسلل إلى قلبها دون أن تخطط للأمر.. كان عمر محاطًا بجمهور قرائه.. آثرت الانتظار حتى انتهاء الندوة للحديث معه.. واستطاعت أن تجذبه إليها بتلك المناقشة الفلسفية التي أثارتها عن موضوع روايته.. ذلك الموضوع الشائك الذي ربما يرفضه الكثيرون كما يهتم به غيرهم على سبيل البحث فيما وراء كل ما هو غامض وغريب.. أرادت أن تعرف ما لا يعرفه غيرها عن

حكايته مع سارة.. تحدثا طويلًا في ذلك المساء.. وتوالت أحاديثهما في مساءات لاحقة.. كانت علاقة عمر وسارة في تلك الفترة يشوبها الفتور.. كانت على وشك الاحتضار كما أعلن عمر لغادة.. أسرها ذلك ولكنها أخفت مشاعرها كي لا يظن بها عمر الظنون.. كانت كل الظروف مواتية لكي تزداد اقترابًا منه والتصاقًا به مما جعل سارة تبتعد أكثر وأكثر عنه.. الغريب في الأمر أن عمر لم يكترث لابتعاد سارة كما لم يبال كثيرا باقتراب غادة.. وكأن الأمر لا يعنيه في شيء..

قامت غادة من على المقعد واقتربت من عمر وطبعت قبلة هادئة على جبينه ثم سارت في اتجاه باب الغرفة.. التفتت نحوه قبل أن تغادر وألقت عليه نظرة حائرة.. وكأنها لا تزال غير مصدقة بأن هذا الممدد في هذه الغرفة هو عمر سراج الكاتب المعروف الذي كانت أخبار نجاحاته تملأ صفحات

كل المواقع الإلكترونية والجرائد الورقية.. منذ شهر واحد كان يملأ عالمها صخبًا وحياة.. وهو الآن راقد على هذا الفراش لا يستجيب لأي محاولات من أجل إعادته للحياة.. (ألهذا الحد ترفض الحياة بعدها يا عمر؟).. تبادر هذا السؤال المباغت إلى ذهنها فانتاب قلبها رجفة ألم لم تستطع أن تكبح جماحها.. انسابت دموع عينيها كأمطار خريفية تسقي أيامها العطشى من دونه بماء الغياب الآسن.. غادرت الغرفة مسرعة وهي تجفف دموعها وتهرب من تساؤلاتها التي قفزت متلاحقة على عقلها الذي كم حاولت تحييده في علاقتها بعمر.. هي من ألقت بنفسها في آتون تلك التجربة القاسية التي كانت تعرف مسبقًا أنها ستودي بقلبها إلى هلاكه وستلقي بها في متاهة مظلمة لن تستطيع الخروج منها قط.. منذ أن تركت العنان لمشاعرها في الانسياق خلف وهم ذلك الحب وهي تتخبط وحدها في دروب اللاعودة.. منحته ما لم

تمنح رجل من قبله.. وعانت من أجله ما لم تكن تتصور يومًا أن تعانيه.. ولكنها لم تندم أبدًا على أنها أحبته.. فذلك الحب هو ما أعادها إلى نفسها الحقيقية.. ومنحها صك غفران لجميع ما اقترفته من ذنوب في حق جميع تلك القلوب التي ذبحتها على أعتاب أنانيتها من قبل.. وكأنها تعمدت قديسة بماء حبها لعمر.. وتطهرت من أدران سنوات عمرها حين منحت له قلبها دون قيد أو شرط..

(٥)

كان كارلوس لا يزال مستغرقًا في النوم بينما إيفيلين ترقد إلى جواره تنظر إليه في صمت.. لم تعد بها رغبة في استئناف علاقتها به.. لم تعد تنتشي من لمساته كما كانت سابقًا.. أحست ليلة أمس أنها تكاد تختنق وهو يضمها بين ذراعيه ويعتصر جسدها.. شيء ما تغير فيها.. ولا تدري إن كان غياب كارلوس عنها طيلة الوقت السابق هو السبب أم ما مرت به من تجارب عابرة أثناء غيابه.. قفز إلى ذهنها فجأة ذلك الغريب الذي يرقد بالمستشفى.. ابتسمت وأغمضت عينيها وهي تتذكر ملامحه.. إنه هو بلا شك.. هو من جعلها تعاف جميع الرجال.. تعجبت من أمرها واتسعت ابتسامتها.. أيمكن أن تكون قد أحبته؟.. كيف لها أن تحب

رجلًا لا تعرف من يكون.. رجل يحتضر.. أزعجها كثيرًا هذا الخاطر ونفضت الغطاء عنها وقامت مسرعة تلتقط ملابسها الملقاة على أرضية غرفة نومها بجوار الفراش.. فتح كارلوس عينيه بصعوبة ونظر لها بتعجب وهي ترتدي ملابسها على عجل.. ابتسمت إليه ابتسامة مقتضبة وشاحبة وغادرت دون أن تمنحه أي إجابة على ذلك السؤال المطل من عينيه.. نهض كارلوس من الفراش متكاسلًا.. وأخذ يطوف في البيت متفحصًا كل ركن فيه.. كان المنزل بسيطًا للغاية ولكنه كان مرتبًا بعناية فائقة.. غرفة نوم سيفان لا تزال كما هي.. أبقتها إيفيلين على حالها منذ آخر مرة وطأها شقيقها.. لم يشأ كارلوس أن يعبث بمحتوياتها حرصًا منه على مشاعر إيفيلين التي كان يعلم جيدًا كم كانت تحب أخاها.. في الصالة كانت هناك صورة وحيدة تتصدر أحد الجدران تجمع بين إيفيلين وأخيها ووالديهما.. بحث كارلوس بعينيه في جميع الجدران

وعلى الطاولات فلم يجد أية صورة له بمفرده أو تجمعه بإيفيلين.. تعجب من الأمر ولكنه تخطاه إلى التفكير في مستقبلهما معًا.. كان عازمًا على أن يصطحبها معه إلى اليونان حيث استقرت أسرته وحيث أصبح له عمل يدر عليه راتبًا شهريًا معقولًا.. اتجه إلى المطبخ وأعد لنفسه فنجانًا من القهوة وجلس يحتسيه في الشرفة الصغيرة التي تطل على شارع جانبي..

كارلوس جريجوري.. شاب وسيم في أواخر العشرينات من العمر.. من عائلة يونانية مكونة من خمسة أفراد.. الأب كان يمتلك متجرًا لبيع الحلوى والخمور.. والأم ربة منزل.. وشقيق يكبره كان يعمل نادلًا أيضًا في فندق سان ستيفانو الذي كان يعمل به كارلوس في ذات المهنة.. أقامت أسرته فترة طويلة في الإسكندرية ولكنهم غادروها إلى اليونان حين

اشتدت الغارات عليها أثناء الحرب.. عرض على إيفيلين أن ترحل معهم ولكنها رفضت مغادرة بيتها ومدينتها التي نشأت فيها بالرغم من مقتل شقيقها الوحيد في إحدى الغارات.. لم يستطع هو البقاء فغادر على وعد لها بالعودة مرة أخرى بعدما تهدأ الأمور في المدينة.. فكر مليًا وهو يستعيد تلك الذكريات.. أتراها ستوافق هذه المرة على الرحيل معه أم أنها ما زالت تتمسك بالبقاء في مدينة لم تمنحها سوى الألم.. لم يفهم أبدًا سر تعلقها بالمكان.. قالت له ذات أمسية.. أن الإسكندرية مدينة حية تأسر فقط الأرواح التي بإمكانها أن تلتقط إشارات الروح التي تسكنها .. لم يع تمامًا ما تقصده.. ظنها تهذي من فرط ما احتسياه يومها من نبيذ.. ولكنها أعادت عليه حديثها ذاك في مناسبات مختلفة.. كانا يتمشيان صباحًا بمحاذاة البحر.. وقفت تنظر إلى الموج بوله شديد.. وتنهدت وهي تخبره أن البحر يحفظ أسرارها.. حكت له عن

ذكريات طفولتها حين كانت تلجأ للبحر تناجيه وتبثه أمنياتها وأحلامها.. شيء ما يربطها بأمواجه وكأنها كانت في يوم ما حورية من حورياته.. كان دائمًا ما يضحك من سذاجة خيالها.. وكانت دومًا ما تتشبث بكل ما يبقيها على قيد هذه المدينة.. بالنسبة إليه لم يكن يرى فارقًا بين الإسكندرية واليونان.. كلتاهما مدينة ساحلية فلا فرق إذًا بين بحر هذه وتلك..

انتهي من فنجان قهوته وزفر بضيق وهو يسترجع تفاصيل ليلة أمس.. شيء ما تغير لم يستطع تبينه بعد.. لم تعد ذات الفتاة التي كانت تنصهر بين ذراعيه من حرارة أنفاسه.. لم يعد للهفة وجود في علاقتهما.. لم يكن الغياب سببًا في فتور مشاعرها من قبل.. كان معتادًا على السفر من آن لآخر وكان يغيب عنها في كل مرة ربما عدة أشهر ولكنها كانت دائمًا ما

تستقبله باشتياق ولهفة عند عودته.. كان غيابه في كثير من الأحيان يشعلها رغبة محمومة في أن تنهل منه أكثر وأكثر.. ماذا تغير إذن؟.. سؤال حيره منذ البارحة ولكنه لم يشأ أن يفسد بهجة مزعومة للقاء بطرحه أسئلة لن يجني منها سوى مزيد من الفتور والصد.. سيحسم أمرهما اليوم بعد عودتها.. فهو على أية حال لن يمكث فترة طويلة بالإسكندرية.. عليه أن يعود سريعًا إلى أثينا حتى لا يفقد عمله الذي جاهد طويلًا للحصول عليه..

(٦)

في مقهى ديليس بمحطة الرمل بالإسكندرية كان يجلس نديم نصار في انتظار سارة.. أخذ يتصفح الجرائد قتلًا للوقت.. لفت انتباهه إعلان لرجل الأعمال ياسر زهران عن جائزة أدبية بإسم عمر سراج.. قرأ تفاصيل الإعلان وابتسم ابتسامة ساخرة.. وصلت سارة رياض إلى المقهى وأشار لها النادل الذي يقف بالقرب من أحد أبواب المقهى نحو الطاولة التي يجلس عليها نديم نصار.. اعتادا اللقاء في ذات المقهى.. كما كانت سارة معتادة على ارتياده منذ أن أتت إلى الإسكندرية للبحث عن عمر سراج فيما مضى.. جذبت سارة مقعدًا وجلست مع نديم..

وضع نديم الجريدة جانبًا وابتسم إلى سارة محييًا..

- صباح الخير يا عزيزتي..

- صباح الخير نديم.. كيف حالك؟

- على ما يرام.. ولكن يبدو أنكِ أنتِ لستِ على ما يرام..

ابتسمت سارة ابتسامة باهتة..

- لم أنم جيدًا ليلة أمس..

- هل ثمة جديد؟.. أم أنه الأرق المعتاد الذي بات رفيقًا لكِ مؤخرًا..

– لا هذا ولا ذاك.. بالي مشغول على عمر.. لا أدرى لماذا.. لا أعني تلك الغيبوبة اللعينة التي لا يزال غارقًا في غياهبها.. ولكنه شيء آخر لا أستطيع تفسيره ولا معرفة ما يكون على وجه اليقين..

ابتسم نديم وهو ينظر إلى سارة مندهشًا ومد لها يده بالجريدة لتقرأ الإعلان الذي نشره ياسر زهران.. اتسعت حدقتاها وامتقع وجهها حين قرأت إسم ياسر زهران.. وضعت الجريدة على الطاولة وهي متجهمة.. ثم فتحت كف يدها وأطالت النظر إليه وشردت للحظات.. بدا القلق على نديم وهو يتابعها بعينيه.. وسألها عن سر هذا الغضب المفاجىء الذي انتابها وعن سبب تحديقها بهذه الصورة الغريبة في كف يدها وكأنها المرة الأولى التي تراه فيها.. أجابته وهي شاردة أنها تذكرت أمرًا ما أخبرها به ياسر

زهران.. هذا الرجل الذي أصبحت على يقين تام أنه يخفي سرًا ما.. سر يتعلق بعمر سراج وربما بها أيضًا ولكنها لم تعرف بعد ما هو.. تعلم جيدًا ما يكنه ياسر لعمر من ضغينة لا تدري سببها.. فكيف يعلن الآن عن جائزة أدبية بإسم عمر سراج ويخصص لها هذا المبلغ الضخم من المال.. أي لعبة سخيفة يمارسها الرجل مع عمر ومعها؟ ولماذا.. عليها أن تجد إجابات شافية لكل هذه الأسئلة التي يثيرها في عقلها ياسر زهران كعاصفة عاتية.. هو من نبهها لاختلاف خطوط كفيها عن غالبية الناس.. خطوط متوازية لا يتقابل أي منهما مع الآخر.. رقم ١١١ في كل كف.. وهو أيضًا يحمل نفس شكل الخطوط في كفيه.. أخبرها ذات مرة أن للأمر علاقة بالقدرات الروحية.. لم تعر لكلامه اهتمامًا.. صحيح أنها تمتلك بعض تلك القدرات والتي مكنتها من تذكر الحياة السابقة التي عاشتها روحها متجسدة في سارة سمعان في

فترة الأربعينات.. وكذلك بعض أحلامها التي تتحقق كما رأتها في منامها.. بخلاف شعورها باقتراب موت البعض قبل موتهم الفعلي.. ولكنها لم تتعمد أبدًا ممارسة هذه القدرات.. أخبرها ياسر أنها يمكن تنميتها واستخدامها متى شاءت ببعض تمارين التأمل كما استطاع أن يفعل هو.. وأراها كف يده المشابه لكف يدها.. كان ذلك في أحد المرات التي التقاها مصادفة في منطقة الزمالك بالقاهرة.. والتي تشعر الآن أنها كانت مدبرة وأن لم يكن للصدفة أي وجود على الإطلاق منذ ظهور ياسر في حياتها هي وعمر.. ربما بات عليها أن تعرف ما الذي يخبئه هذا الرجل من أسرار..

كان نديم يستمع إليها باهتمام شديد.. كان متعجبًا مما ترويه له لأول مرة.. فما يعرفه عن ياسر زهران مخالف تمامًا لما سمعه من سارة لتوه.. ياسر الذي يعرفه شخص عملي

لأقصى الحدود.. ليس للجانب الروحي مكانًا في عملياته الحسابية الدقيقة.. وكأن سارة تتحدث عن شخص آخر غير الذي لازمه سنوات طوال في حي جليم بالإسكندرية.. وتخرج في كلية الهندسة القسم المعماري وأنشأ تلك المؤسسة الهندسية التي نفذت الكثير من المشروعات الضخمة في جميع أنحاء الجمهورية..

نديم نصار.. خمسيني.. من أسرة عريقة سكندرية الأصول.. أرمل.. لم ينجب أولادًا.. أكاديمي.. يدرس الفلسفة في إحدى الجامعات المصرية بالإضافة إلى ترأسه بعض المؤسسات الثقافية.. قارىء نهم في جميع المجالات المختلفة.. التقى سارة لأول مرة في إحدى الندوات التي كان حريصًا على حضورها في الإسكندرية والتي أقامتها في ذلك اليوم دار النشر التي تصدر روايات عمر لروايته الأخيرة

متروبول.. كان قد قرأ الرواية قبل الندوة وأعجب بأحداثها وقرر أن يلتقي كاتبها بعدما عرف من بعض الأخبار التي نُشرت عنها أنها مبنية على أحداث حقيقية.. دراسته للفلسفة جعلته يهتم بالجوانب الروحانية في الإنسان.. قرأ كثيرًا في هذا المجال واطلع على ثقافات مختلفة ناقشت مسألة الروح.. لم يخطر بباله أن سيلتقي وجهًا لوجه ببطلة رواية عمر سراج.. سارة.. تلك الفتاة التي شغلت تفكيره قبل أن يراها واقعًا أمام عينيه.. تفاجأ بوجودها في تلك الندوة وأبهرته ثقافتها الواسعة.. صحيح أنها جميلة ذلك الجمال الجاذب الذي يتسلل إلى نفس من يراها حتى يحتله ولكن ما أعجبه فيها حقًا لباقة حديثها وقدرتها على النقاش في العديد من الموضوعات.. تجاذبا أطراف الحديث في تلك الأمسية وقدم لها نفسه وأخبرها أنه مهتم بدراسة حالتها كحالة بحثية يرغب في أن تتضمنها محاضراته القادمة عن الروح وعن

فكرة تناسخ الأرواح.. لم تمانع.. أعجبتها فكرة أن يتحدث الجميع عنها وعن تجربتها الفريدة تلك والتي قد لا يعترف بها الكثيرون أيضًا في المجتمع.. التقيا عدة مرات وتوطدت صداقتهما.. كانت سارة في ذلك الوقت لا تزال تتنقل ما بين شقتها في حي الزمالك بالقاهرة وبين تلك الشقة التي استأجرتها في شارع فؤاد بالإسكندرية.. حتى التقت ذات مرة مصادفة بياسر زهران أثناء سيرها مع نديم نصار في محطة الرمل.. قدمها نديم لياسر وأبدى ياسر اهتمامًا كبيرًا بها منذ الوهلة الأولى مما أزعجها بقدر ما أثار استغرابها.. عرف ياسر من نديم أن سارة تبحث عن مسكن دائم في الإسكندرية فعرض عليها أن يبيعها شقة يمتلكها في حي سان ستيفانو في أحد الشوارع الداخلية التي ما زالت تحتفظ بطابعها الراقي وبهدوئها.. وافقت من فورها بعد أن أعياها البحث بعد ذلك التحول المقيت إلى الفوضى والعشوائية

الذي أصاب مناطق كثيرة بها وانتهك جمالها وسحرها القديم.. ابتاعت منه الشقة وانتقلت إليها.. وبدأ ياسر في التودد إليها بعد ذلك.. كانت تتغاضى عن محاولاته لكسب ودها تارة وتصده تارات أخرى..

تنهدت سارة وعلامات الحيرة بادية على ملامحها.. فطمأنها نديم كعادته أن كل شيء سيكون على ما يرام.. اقترح عليها أن يذهبا غدًا للقاهرة للاطمئنان على عمر.. ابتسمت له مرحبة باقتراحه.. فبالرغم من انتهاء علاقتها بعمر إلا أنها لا تزال تحمل له بداخلها بعض الود القديم وكثير من الذكريات..

(٧)

في ذلك المشفى كان أنطونيو جيانو أو كما كان يطلق على نفسه ماريو جيانو ما زال في غياهب تلك الغيبوبة التي راح فيها بعد مقتل سارة سمعان أمام عينيه وبعدما خضع لذلك التحقيق الطويل من قوات جيش الرايخ بعد هزيمتهم في معركة العلمين.. لم يعرف أي من العاملين بالمستشفى من يكون.. وضعوه في تلك الغرفة تحت الملاحظة الطبية وأولوا الممرضة إيفيلين أمر العناية به.. بحثت عنه أسرته كثيرًا ولكنهم لم يهتدوا إلى مكانه حتى قرروا نشر صورته في الصحف علّ أحدهم يدلهم عليه..

وصلت إيفيلين إلى المستشفى وفي طريقها إلى غرفة أنطونيو جيانو التقت أحد الأطباء العاملين في المكان والذي أبلغها بالأمر.. كان قد رأى صورته في إحدى الصحف مع مناشدة من أبيه الطبيب جيانو باولو الذي يعمل في المستشفى الإيطالي بنيتو موسوليني الإتصال به في حال العثور على ابنه المفقود.. عرفت الآن إسمه ومن يكون ولكن ثمة قلق مبهم ساورها.. أيمكن أن تفقده هكذا في لحظة ما لو عاد إلى أسرته.. أخفت ما يدور بذهنها عن محدثها وأخذت منه الصحيفة وذهبت مسرعة إلى غرفة رجلها الغارق في غيبوبته.. دخلت الغرفة وقلبها ينتفض من بين ضلوعها.. اتجهت إليه وضمته بقوة.. وضعت رأسها على صدره واطمأنت إلى أنه ما زال يتنفس الحياة.. طبعت قبلة حانية على جبينه وانسابت دموعها في صمت.. جلست على ذلك الكرسي المجاور لفراشه وأمسكت بالصحيفة واخذت تردد

إسمه المكتوب في ذلك الإعلان.. لم تكن تعرف أن ثمة روح بالغرفة تراقبها وتراقب جسده المسجى على الفراش.. الروح التي كانت تسكن جسده قبل أن يصاب بتلك الغيبوبة..

في سقف الغرفة كانت هناك روح تقف حائرة.. تطالع جسد أنطونيو جيانو الراقد بلا حراك وإيفيلين التي تمسك الصحيفة وتحدق بإحدى صفحاتها.. وخلف تلك الروح كان هناك نفق طويل جدا كالأنبوب وفي آخره ضوء شديد.. لم تدر الروح ماذا يجب عليها أن تفعل.. أتدخل النفق وتتبع الضوء الذي تراه بعيدًا أم تعود إلى ذلك الجسد الممدد في تلك الغرفة.. شاهدت أطيافًا في بقعة الضوء البعيدة تلك.. تبدو وكأنها تناديها أن تذهب إليها.. ولكنها ظلت واقفة مكانها مسلوبة الإرادة لا تستطيع دخول ذلك النفق والانضمام إلى تلك الأطياف ولا العودة إلى جسد أنطونيو جيانو..

وضعت إيفيلين الصحيفة على طرف الفراش وقامت من على كرسيها لتناول مريضها بعض العقاقير التي وصفها له الأطباء.. حقنت ذراعيه أولًا ببعض السوائل ثم فتحت فمه ووضعت به بعض الأقراص وجرعته بعض الماء.. في تلك اللحظة فتح أحد الأطباء باب الغرفة وكان بصحبته رجل آخر لم تره من قبل.. كان باولو جيانو الذي اتصل به هذا الطبيب في الصباح حين قرأ الإعلان الذي نشره باولو في الصحيفة عن ابنه المفقود وأبلغه أن ابنه موجود في المستشفى التي يعمل بها.. دلفا معًا إلى الغرفة وقدمه الطبيب لإيفيلين التي انتابها خوف مفاجيء بدا واضحًا على ملامح وجهها.. بينما انتفض جسد المريض بغتة لينتاب الجميع القلق.. لم تكن حالة أنطونيو تسمح بنقله إلى منزل أسرته أو إلى مستشفى آخر.. أقر والده الأمر وأذعن لبقائه حيث هو بعد أن اطمأن عليه وعرف مكانه.. ارتاحت نفس إيفيلين بعد سماعها ذلك

القرار من باولو جيانو.. ووعدته أن تبقى على اتصال دائم به لتطمئنه أولًا بأول على ابنه.. غادر باولو الغرفة يرافقه الطبيب.. وبقيت إيفيلين مع مريضها تبتسم له وتقص عليه من حكايتها ما لم تروه لأي شخص آخر.. والروح التي تقف في سماء الغرفة لا تزال مكانها تطالع كل ما يدور حولها بدهشة وانبهار..

(٨)

في مكتب أنيق وفخم في إحدى البنايات بمنطقة سموحة بالإسكندرية كان يجلس ياسر زهران ممسكا بصورة عمر سراج يتأملها ويبدو على ملامحه إصرار على أمر ما.. رن هاتفه المحمول وأضاءت شاشته بإسم مليكة الزاهد ولكنه تجاهل المكالمة وظل يحدق في صورة عمر ثم أغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا.. عاود هاتفه المحمول الرنين.. كانت مليكة مرة ثانية.. وضع صورة عمر في أحد أدراج مكتبه وأجاب على الاتصال..

- كيف حالك يا عزيزتي.. أنا بخير.. نعم.. مشغول بعض الشيء.. لا بأس سأحاول الحضور.. إلى اللقاء..

أنهى ياسر مكالمته مع مليكة وبدا عليه التفكير في أمر مهم.. لم يعد بحاجة إلى حضور تلك الجلسات التي تعقدها مليكة في منزلها ولكنه في الوقت ذاته لا يريد أن يخسر صداقتها.. كانت مليكة بالنسبة له مفتاحًا لكثير من الأبواب المغلقة التي لا يزال بحاجة إلى الولوج منها.. كما أنها الوحيدة التي تعرف تفاصيل سره الذي يحرص على إخفائه عن جميع المحيطين به حتى المقربين منه.. علاقته بها معقدة بعض الشيء.. فبالرغم من أنها ترفض أمورًا عدة أصبح يمارسها هو عن عمد إلا أنها تبقي على صداقته.. قالت له ذات مرة أن بداخله بقعة ضوء ما زالت تنير جنبات روحه عليه أن يحافظ عليها قبل أن تخبو للأبد ويعم الظلام أرجاء نفسه.. حاولت أن تثنيه عن التمادي في معرفة ما لا ينبغي معرفته من تفاصيل الماضي وأن تبعده عن استغلال ما لديه من ملكات في أمور قد تدفعه إلى الهاوية ولكنه ضرب بكل نصائحها

عرض جميع الحوائط.. فما عرفه من حقائق لا يستطيع أن يتناساه.. وما كشفه من حجب لم يعد بإمكانه أن يتظاهر بعدم رؤيته.. ظلت هي تحرص على دعوته لحضور تلك الجلسات الروحية التي تقيمها كل شهر في منزلها لكي تعرف حدود ما وصل هو إليه من قدرات وحتى تقف حائلًا بينه وبين نزعات نفسه التي تعلم أنها قد تقوده إلى الهاوية في يوم من الأيام..

ياسر زهران.. في منتصف الأربعينات.. عادي الملامح.. الابن الأكبر لأسرة ميسورة الحال اجتماعيًا وماديًا.. ولد ونشأ في حي جليم بالإسكندرية.. كان متفوقًا في الدراسة طيلة سنواتها حتى التحق بكلية الهندسة واختار قسم معماري لولعه بالمعمار وطرزه المختلفة.. تفوق في الكلية أيضًا وعمل معيدًا بها بعد تخرجه مباشرة.. ثم أسس شركة هندسية

سرعان ما ذاع صيتها واتسع نشاطها وحققت نجاحًا ملحوظًا وبمرور الوقت أصبحت الشركة مؤسسة هندسية كبرى.. لا أحد يعرف على وجه اليقين مصدر الأموال التي أنشأ بها صرحه الهندسي الضخم.. البعض أرجعه إلى نجاحه في عمله والبعض الآخر أشاع أنه تزوج تلك المرأة الألمانية التي طلقها فيما بعد طمعًا فيما لديها من ثروة والتي أنجب منها ابنة واحدة اختارت العيش مع أمها بعد انفصالها عنه.. ولم تعد تتواصل معه إلا نادرًا.. أما هو فكان لا ينفي ولا يؤكد ما يقال عنه.. وكأنه يرغب في استمرار تلك المهاترات والتكهنات عنه وعن مصدر ثروته لإبعاد الأعين عن نشاطه المستتر الذي يدر عليه أموالًا طائلة.. كان حريصًا كل الحرص على ألا يبوح بسره لأي مخلوق ولكن مليكة عرفت بالأمر.. صداقته القديمة لها وكتمانها لسره جعلاه يحجم عن التفكير في التخلص منها أو الابتعاد عنها.. ربما كانت

الوحيدة التي تعرف عنه ما لا يعرفه الآخرون والتي يبوح لها أيضًا بما لا يقوى أحيانًا على البوح به حتى لنفسه..

فتح كف يده وأطال النظر به.. كانت البداية عندما ألح عليه ذلك التساؤل الذي لم يستطع أن يجد له إجابة محددة في الماضي.. لماذا تختلف خطوط كف يده عن جميع المحيطين به سواء من أفراد عائلته أو زملائه في المدرسة.. أخبرته أمه آنذاك أنه ورث ذلك الأمر عن أحد أجدادها ولكنها لم تخبره بأن جده ذاك كان لديه من القدرات الروحانية ما ليس لغيره من أفراد عائلته.. حتى بدأ يقص عليها أحلامه التي تتحقق وحدسه الذي يصيب.. حينها قصت له قصة جده وكيف كانت العائلة بأكملها تعده شيخًا مبروكًا.. ومنذ ذلك الحين بدأ ياسر يهتم بالاطلاع على جميع الكتب التي ناقشت مسألة الروح والروحانيات والباراسيكولوجي والميتافيزيقا..

أصبح مهووسًا بالأمر واستطاع تنمية قدراته الروحانية بشكل ملفت ولكن دون أن يبوح لمخلوق بما تمكن من الوصول إليه.. قادته خطواته على ذلك الدرب إلى دروب أشد وعورة وخطورة حتى تمكنت منه كما تمكن هو منها..

(٩)

كان المساء ملبدًا بغيوم المسافات ومشحونًا بعواصف النهايات.. أعادت على نفسها وهي تسير على الكورنيش ما ستتلوه عليه من أخبارها.. أعدت عدتها جيدًا لكي تبقيه بعيدًا وتعيده من حيث أتى.. اتخذت قرارها بأن تغرس نصل الحقيقة في قلبه حتى لا تبقي فيه نبضًا عالقًا بالماضي ولا تذر به أمنية تعلقه بمستقبل ليس له وجود.. ظلت تسير على شاطىء البحر حتى كلت قدماها ونهشها الجوع.. عرجت على متجر للبقالة ابتاعت منه بعض الأغراض ثم عادت إلى بيتها تحمل طعامها وقلقها من المواجهة..

كان كارلوس لا يزال في منزل إيفيلين يقطع الصالة ذهابًا وإيابًا وهو ينتظر عودتها وقد اعتراه السأم وتمكن الضيق منه.. فتحت إيفيلين باب الشقة ودلفت وقد بدا عليها الإنهاك.. كاد يعاتبها على تأخرها.. ولكنها أسكتته بابتسامة باهتة.. وعللت عودتها متأخرة بانشغالها في العمل.. دعته إلى تناول الطعام معها.. تناولاه صامتين.. شعرت أن جميع ما رتبته من حديث انمحى من ذاكرتها.. دعاها إلى غرفة النوم بعدما انتهيا من تناول العشاء ولكنها أحجمت.. ثار عليها..

- منذ ليلة أمس وأنا أكذب نفسي.. أشعر أن ثمة شيء تغير ولكني لا أدري ما هو تحديدًا..

حَاوَلتْ تصنع الهدوء وجاهدت لتخفي تلك الرجفة التي اعترتها..

– لا تُكَذِبْ نفسك فهذه هي عين الحقيقة.. لقد تغيرت يا كارلوس.. غيابك الطويل غير بي الكثير.. لم أعد تلك الفتاة التي تدور في فلك وجودك.. مات شيء ما بقلبي حين مللت انتظارك وحين يئست من عودتك..

بُهتَ وهو يستمع إلى حديثها الذي لم يكن يتوقعه على الإطلاق.. شعر أنه سيخسر جولته في معركة استعادتها إن هو تمادى في ثورته.. فآثر التريث في ردود أفعاله ولو افتعالًا كاذبًا.. ولكنها هي التي تمادت في رواياتها عن هؤلاء الرجال الذين عبروا على جسدها تباعًا أثناء غيبته.. اخترعت له أسماء لأشخاص لم يصادفوها قط في حياتها.. وألّفَتْ له حكايات لم تحدث.. أضافت تفاصيل تشينها لتلك التي حدثت بالفعل.. وكلما أحست أنه على وشك الانفجار زادت من سخونة الحديث بتلذذ واضح وكأنها تستحضر

أشباحهم أمام عينيه ليفتكوا بما تبقى لديه من ذكريات غالية جمعت بينه وبينها..

لم يستطع أن يتمالك أعصابه وهي تروي له مغامرات عهرها.. صفعها بقسوة لتسقط على الأرض والدماء تسيل من أنفها ولكنها لم تبكِ ولم تحاول استعطافه.. نهضت من سقطتها وهي تنظر له بتحدٍ وتبتسم بلا مبالاة أثارت حفيظته أكثر وأكثر.. لعنها ووصفها بأقذع الصفات.. تعالت ضحكاتها الماجنة وتركته ودخلت إلى حجرتها وأغلقت الباب خلفها..

ظل واقفًا مكانه يحاول التغلب على هول صدمته.. اتجه ناحية باب الشقة بخطوات أثقلها الألم وغادر غير آسف عليها وصفع الباب بقوة وقسوة وكأنه يصفع ذلك الماضي

الذي جمعهما يومًا ما.. ارتج جسدها في تلك اللحظة وهي تجلس على طرف فراشها ثم انكفأت تبكي كما لم تبكِ من قبل.. لم تكن تبكيه أو تبكي صورتها التي أضرمت فيها النيران عمدًا في مخيلته.. ولكنها كانت تغسل نفسها من كل أدرانها التي علقت بها.. أغمضت عينيها بارتياح.. شعرت بأنها ولدت من جديد.. وأن ثمة بداية جديدة تنتظرها مع ذلك المسجى في المستشفى.. وأن حكاية ما تخط سطورها الأولى في دفتر أيامها.. حكاية هو بطلها الوحيد.. استحضرت ملامحه المحفورة في ذاكرتها.. منحته قبلة دافئة.. وراحت في نوم عميق لأول مرة منذ وقت طويل ممنية نفسها بأن يجمعها حلمها به..

(١٠)

استيقظت مبكرة لتتوجه إلى القاهرة قبل قيظ الظهيرة.. لم تبلغ نديم بموعد سفرها.. لم ترغب في مرافقته لها.. أرادت أن تختلي بنفسها مع عمر.. فهناك الكثير من الأمور التي لا تزال غامضة بالنسبة لها.. كانت تعلم أنها لن تستطيع الحديث مع عمر ولكنها ستجد إجابات تلك الأسئلة التي تتزاحم في عقلها.. ستصل إليها بحدسها.. هذا الحدس الذي لطالما قادها لحقائق لم تكن في الأصل تبحث عنها أو حتى تريد معرفتها.. انطلقت بسيارتها يصاحبها صوت فيروز الذي تعشقه.. كادت تصل إلى القاهرة.. توقفت قليلًا عند استراحة (ماستر) تبتاع قدحًا من القهوة.. تذكرت وهي تنقد البائع ثمنها ذلك اليوم الذي كانت في طريقها من

القاهرة إلى الإسكندرية لاستكمال رحلتها في البحث عن عمر.. كانت في ذلك اليوم ما زالت تحتفظ في حافظة نقودها بتلك الصورة التي جمعت ما بين سارة سمعان وماريو جيانو.. لم تعرف له اسمًا سوى ماريو كما أخبر هو سارة ذات حياة سابقة.. أما اليوم فلم يعد لتلك الصورة مكانًا بين حاجياتها.. ولم تعد هي نفسها ترغب في تذكر أي شيء عن تفاصيل تلك الحياة الماضية.. أهالت التراب على تلك الحكاية الغابرة بعدما خذلها الحاضر..

انتهت من قهوتها وعادت لتنطلق بسيارتها مرة أخرى.. تذكرت ما قاله لها نديم ذات لقاء بأنها لم تعش حياة سارة سمعان في الواقع فهي فتاة أخرى غيرها.. كل منهما لها نفس مختلفة عن الأخرى وإن كانت ذات الروح واحدة.. والروح هي ما احتفظت في ذاكرتها بتلك التفاصيل عن حياة سارة

سمعان التي كانت تعيش في الإسكندرية في الأربعينيات والتي تختلف عن شخصيتها هي سارة رياض التي تعيش في الزمن الحاضر.. لم تفهم كثيرًا آنذاك مما شرحه لها عن الروح والنفس والفرق بينهما ولكنها استراحت لتفسيره واستكانت لحقيقة أنهما شخصيتان مختلفتان.. فلا عجب إذن أن حكايتها مع عمر تختلف عن حكاية ماريو مع سارة سمعان.. الروح تحتفظ بالذكريات والتجارب التي مرت بها في حيواتها السابقة ولكن النفس هي من تحب أو تكره.. هي من ترغب أو تنفر.. الأمر منطقي هكذا.. ابتسمت وهي تقبض بيديها على مقود السيارة وكأنها ترسل لنديم رسالة شكر لأنه انتشلها من حيرتها التي كادت تفقدها صوابها..

وصلت إلى المستشفى قبيل موعد الزيارة بنصف ساعة فاضطرت إلى الجلوس في صالة الانتظار القريبة من غرفة

العناية المركزة التي يرقد بها عمر.. أرسلت رسالة نصية لنديم تخبره فيها بأنها في القاهرة وسترجع إلى الإسكندرية في المساء.. ثم أغلقت هاتفها المحمول تمامًا ووضعته في حقيبة يدها.. لمحت سليم ودينا يقتربان من غرفة العناية المركزة.. انتابها بعض الارتباك.. فعلاقتها بهما لم تعد على ما يرام منذ انفصالها عن عمر ولكنها أخفت توترها وحاولت أن تبدو هادئة.. رآها سليم فأشاح بوجهه عنها بعد أن صوب لها نظرات حادة.. تظاهرت بعدم رؤيته ولكنها تفاجأت بدينا تمشي في اتجاهها وتجلس إلى جوارها..

– سارة.. كيف حالكِ يا عزيزتي.. لم نلتق منذ فترة طويلة..

– بخير.. كيف حالكِ أنتِ يا دينا.. أرجو أن يكون كل شيء في أحسن حال..

– الحمدلله.. في الحقيقة أردت التحدث إليكِ من قبل ولكني ترددت كثيرًا.. فلا أدري ماذا سيكون وقع كلامي عليكِ.. وهل يحق لي قوله أم لا..

– ما الأمر يا عزيزتي.. أقلقتني بهذه المقدمة التي لا أعتقد أنه لابد منها..

– ياسر زهران.. الأمر يتعلق بياسر زهران يا سارة.. تأكد سليم أن لهذا الرجل علاقة ما بالحادثة التي وقعت لعمر.. ربما هو من دبرها أو ربما يكون هو من نفذها أيضًا.. لا ندري على وجه اليقين ولكن كل ما نعرفه أن له علاقة بها.. فقط احذري منه إن كان لا يزال على تواصل معكِ..

كانت سارة تستمع إلى دينا بذهول ليس لأن لياسر زهران علاقة بالحادثة فقد خمنت ذلك من قبل بحدسها.. ولكن

لأنها بدأت بالفعل العثور على إجابات لأسئلتها التي أرقتها ليالٍ طوال.. صدق حدسها مرة أخرى وقادها إلى الإجابات التي كانت تبحث عنها.. هزت رأسها بحركة آلية وكأنها تقول لدينا بصمتها وشرودها أنها فهمت تمامًا ما تعنيه بكلامها عن ياسر زهران.. تركتها دينا لتنضم إلى سليم الذي يقف على باب غرفة عمر في انتظار أن تأذن له الممرضة بالدخول.. ظلت سارة جالسة على مقعدها غارقة في شرودها ومستغرقة في تفكيرها فيما تلته دينا لتوها على مسامعها.. قفز سؤال جديد إلى ذهنها وألقى بها في بحار الحيرة ثانية.. لماذا؟.. لماذا يرتب ياسر تلك الحادثة لعمر.. ما الدافع وراء تلك الكراهية المستترة بينهما وهما بالكاد يعرفان بعضهما.. وكيف لها أن تعرف إجابة هذا السؤال وعمر لا يزال غائبًا عن الدنيا وبالطبع لن تسأل ياسر ولن تتوقع أن يجيبها ببساطة..

قامت من على مقعدها واتجهت إلى غرفة عمر في الوقت الذي كان سليم ودينا يغادران.. دلفت إلى الغرفة ووقفت أمام السرير الذي يرقد عليه عمر وظلت تتأمله بألمٍ عميقٍ بدا ظاهرًا على ملامحها.. همت بالكلام ولكنها أجفلت.. وماذا بعد أن تتحدث إليه.. هل سيسمعها؟ هل سيجيب عليها.. هل سيعود إلى دنياها بعد طول غياب.. ندت من شفتيها كلمة خفيضة.. لماذا.. لماذا يا عمر؟.. خُيل إليها أن أحد أصابع يده تحرك وكأنه يشير إليها إشارة ما.. أغمضت عينيها وعادوت فتحهما مرات متتالية علّها تتحقق مما رأته.. ولكن جسده أبى أن يمنحها أي إشارة تنتشلها من دوامة الأفكار التي تبتلعها.. اقتربت منه وأمسكت بكفه وقبلت باطنه ثم غادرت الغرفة وقد امتلأت عن آخرها بالأسى على ماضٍ ولى وحاضر موجع.. أما ذلك الممدد على فراش غرفة العناية المركزة فكانت روحه تراقبها وهي تغادر.. ولكن لم يكن

باستطاعتها أن تنادي عليها أو تسرد لها ما شاهدته من عجائب طيلة الفترة السابقة.. لم يعرف أحد أن عمر كان يرى بعيني روحه ما حدث لماريو جيانو بعد مقتل سارة.. وأن تفاصيل حياة ذلك الجاسوس العاشق ما زالت محفورة في ذاكرة الروح التي سكنت جسده فيما مضى قبل أن تسكن جسد عمر.. والتي تقف الآن معلقة بين عالمين لا تدري إلى أيهما ستمضي في النهاية..

ويحدث أن تستعيد ذاكرة الروح تلك التفاصيل التي عاشتها فيما مضى من حياة أو حيوات.. وتكشف ستر أسرارها الدفينة لتضيء جنبات النفس التي تسكنها بنور الحكمة وتهبها وهج المعرفة لتنعم بحاضر يضوع بعطر الحياة ذاتها.. رأت روحه - فيما ترى روح الغائب عن وعيه – ما لم تكن تراه عين خياله.. استطاع أن يعرف تفاصيل بقية

الحكاية القديمة التي عاشها.. وما آلت إليه حياة ماريو (أنطونيو) جيانو.. وما عاشته تلك الروح – التي سكنت أنطونيو سابقًا وسكنته فيما بعد – من حياة سبقت حياة أنطونيو في ذلك الزمان البعيد من القرن التاسع عشر.

(١١)

على ذلك الشاطىء الرملي لفندق سان ستيفانو الذي بناه بوجوس نوبار.. وتحديدًا في المنطقة المخصصة للرجال حيث كان الشاطىء ينقسم لجزأين منفصلين.. قسم للسيدات والآخر للرجال.. كان إسماعيل فخر الدين الذي يبلغ تسعة عشر عامًا يجلس وحيدًا في ساعة مبكرة جدًا من النهار يتأمل موج البحر ويفكر في أمر ما يبدو أنه يؤرقه كثيرًا.. جاء مع أسرته إلى الفندق لقضاء بضعة أيام به.. أسرته ثرية مكونة من أبيه سيف الدين شوكت الذي يعمل في تجارة القطن والذي استطاع أن يحصل على البكوية.. وأمه نازلي توفيق وهي سليلة إحدى الأسر العريقة وشقيقته فاطمة التي تكبره بعامين ومتزوجة من ابن أحد الأثرياء الذين يعملون في

التجارة أيضًا.. كان إسماعيل فتى وسيمًا.. هادىء الطباع.. مفتونًا بالجمال في كل شيء.. رآها عصر الأمس تتحدث إلى أحد العاملين بالفندق.. انبهر بجمالها ولم تبارح خياله منذ تلك اللحظة.. سلبت لبه بالرغم من مظهرها البسيط.. سهر ليلته يرسم ملامحها في ذاكرته.. ويضفي عليها ألوانًا من التمني والخيال.. ابتسم وهو يرفع رأسه إلى السماء وأغمض عينيه وتمنى لو يراها مرة ثانية.. ربما استطاع الحديث إليها.. غادر الشاطىء وعاد إلى الفندق يبحث عن ذلك الرجل الذي كانت تحادثه بالأمس.. إنه لا يعرف اسمه ولكنه يعلم أنه يعمل بالفندق وهذا وحده كافيًا لأن يبعث في نفسه الأمل بالعثور عليه..

جاب أرجاء الفندق الكبير بحثًا عن بغيته.. قضى ساعات طوال في التجوال هنا وهناك.. ولكنه لم يجد لذلك الرجل أي

أثر.. من المؤكد أنه يعمل بالفندق لأنه كان يرتدي ذات الزي الذي يرتديه جميع العاملين به.. ربما لم يأت اليوم للعمل لسبب أو لآخر.. عليه أن يعاود البحث عنه في الغد.. لا تزال فترة إقامته في الفندق ممتدة لبضعة أيام أخرى.. لن يهدأ بالًا حتى يصل إلى تلك الفتاة التي فتنته.. صعد إلى غرفته وألقى بنفسه على الفراش وراح في نوم عميق لساعة أو يزيد..

أيقظته تلك الطرقات المنتظمة على باب الغرفة.. كان والده يطلب منه الانضمام لباقي أفراد الأسرة لتناول الإفطار في مطعم الفندق..

نهض إسماعيل من الفراش وارتدى ملابسه سريعًا ولحق بأسرته.. لم يشاركهم أحاديثهم في ذلك الصباح كما اعتاد.. أثار صمته قلق أمه ولكنه لم ينتبه للأمر.. حاول الوجيه أمين

شاكر زوج شقيقته أن يجذب انتباهه بالكلام عن الحفل الموسيقي المزمع إقامته في الفندق في المساء لعلمه بولع إسماعيل بالموسيقى إلا أن إسماعيل ظل صامتًا شاردًا.. ظن أبوه أن مرضًا ما قد أصابه.. وانتابت فاطمة أخته حالة من الضيق بسبب ما تبديه الأسرة من اهتمام مبالغ فيه بشقيقها الفتى المدلل كما تطلق عليه دائمًا..

لمح إسماعيل ذلك الرجل الذي كانت تتحدث فتاة أحلامه إليه.. كان يقف عند مدخل المطعم يرحب بالنزلاء الذين توافدوا على المطعم لتناول طعام إفطارهم.. هب إسماعيل من مقعده وجرى نحو الرجل قبل أن يفقد أثره مرة ثانية.. تبادل جميع أفراد أسرته النظرات باندهاش الذي سرعان ما تحول لغضب مكتوم من ذلك التصرف الأهوج الذي قام به إسماعيل والذي تسبب في إحراجهم أمام جميع من كانوا في

المطعم.. كاد الأب يلحق بابنه ويعنفه إلا أن الأم أمسكت بذراعه ناهية إياه عن معالجة حماقة ابنهما بحماقة أكبر.. ظل فخر الدين يتابع ابنه بعينيه وبدت عليه الدهشة وهو يراه يقف مع عامل الفندق ويبدو أن حديثًا ما مطولًا يجري بينهما بود غير مفهوم.

(١٢)

غادرت سارة المستشفى واستقلت سيارتها عائدة إلى الإسكندرية.. ظلت طيلة الطريق تفكر فيما قالته لها دينا عن ياسر زهران.. فكرت في الاتصال به علّها تعرف أية تفاصيل عن سر تلك العداوة بينه وبين عمر ولكنها عدلت عن الفكرة.. رن هاتفها المحمول وأضاءت شاشته بإسم ياسر زهران.. بهتت حين رأت الإسم.. داست على مكابح سيارتها بكل قوتها من المفاجأة وكادت تصطدم بعمود إنارة.. عاودت القيادة حتى وصلت إلى مكان مخصص لتوقف السيارات على جانب الطريق وصفت سيارتها به وأخذت تتنفس ببطء وعمق تحاول لملمة شتات نفسها قبل أن تجيب اتصال ياسر.. وما إن سمعت صوته حتى عاودها

الشعور بالتوتر والانزعاج.. شيء ما يصيبها بالقلق عند رؤيته أو سماع صوته.. شيء لم تستطع تفسيره بعد..

- كيف حالك عزيزتي سارة؟

حاولت أن تبدو هادئة قدر المستطاع وهي تجيبه..

- بخير.. كيف حالك أنت يا ياسر؟

- أنا أيضًا بخير.. أردت الاطمئنان منكِ على عمر.. هل هناك تحسن في حالته أم لا تزال كما هي؟

أصابها الوجوم واحتلها الصمت حين سألها عن عمر.. كيف عرف أنها ذهبت لزيارته هذا الصباح.. استأنف هو حديثه بهدوء..

– أعتقد أنه لا يزال غائبًا عن وعيه.. على أية حال أتمنى أن يفيق من غيبوبته قريبًا.. كما أتمنى رؤيتك في أي وقت مناسب لكِ.. إذا لم يكن لديكِ مانع فلنتناول العشاء سويًا اليوم بعد عودتك إلى الإسكندرية.. ما رأيك في مطعم سانتا لوتشيا؟ أعلم أنه المفضل لكِ.. سأنتظر اتصالكِ ريثما تصلين إلى الإسكندرية.. قودي على مهلٍ يا عزيزتي حتى تصلي بالسلامة..

أنهى ياسر المكالمة.. بينما ظلت سارة تحدق في الفراغ وهي ذاهلة.. إنه على علم تام بكل تحركاتها.. كما أنه يعرف أن عمر لم يفق بعد من غيبوبته.. أي شيطان مريد هذا.. شعرت بخوف حقيقي يسري في جميع أوصالها.. أحست برغبة في البكاء ولكنها تماسكت في النهاية وعاودت الانطلاق بسيارتها من جديد.. تمنت لو أن صديقتها نانسي ناصيف لا

تزال موجودة في الإسكندرية ربما استطاعت أن تساعدها في كشف غموض هذا الرجل كما ساعدتها من قبل في العثور على عمر سراج حين كانت تبحث عنه.. إن نديم لا يعرف عن ياسر سوى ما أخبرها به والذي لم يمط اللثام عن الجانب الخفي في حياته.. تذكرت يوسف يعقوب وانسابت دموع رثاء صامتة من عينيها.. أحست باشتياق إليه.. كانت على مشارف الإسكندرية قبيل العصر بقليل عرجت أولًا على مقابر اليهود بمنطقة الشلالات حيث دُفِن يوسف.. ألقت السلام عليه وبثته حنينها لتلك الأيام التي كانت تجمعهم هي وهو ونانسي.. ثم غادرت متجهة إلى بيتها في حي سان ستيفانو..

وصلت إلى منزلها وهي في حالة من الإعياء الذهني الشديد.. ألقت بنفسها على سريرها وغرقت في دوامة

أفكارها حتى غلبها النوم.. انتشلها من النوم رنين متواصل لهاتفها المحمول.. كان نديم نصار هذه المرة.. أجابته بكلمات مقتضبة كانت كافية لأن يشعر بأنها ليست على ما يرام.. طلب منها أن يلتقي بها ولكنها تذكرت مكالمة ياسر لها وذلك الموعد الذي حدده معها في المساء.. اعتذرت لنديم متعللة بإرهاقها ووعدته باللقاء في الغد.. أنهت مكالمتها مع نديم وأرسلت رسالة نصية إلى ياسر زهران تبلغه فيها بأنها ستكون في انتظاره في مطعم سانتا لوتشيا في تمام التاسعة.. بدا عليها التصميم على أمر ما.. أمر إما أن يقودها إلى الحقيقة أو إلى حتفها.. فلتبدأ إذن أولى خطواتها على هذا الدرب المحفوف بالمخاطر..

مارست بعض تمارين التنفس التي كانت نانسي علمتها إياها حين كانت تدربها على بعض تمرينات اليوجا.. استعادت هدوء عقلها وسكينة نفسها..

تجهزت للمساء بعناية فائقة فانتقت فستانًا أنيقًا ومثيرًا.. ووضعت بعض مساحيق التجميل التي زادتها فتنة وجمالًا.. ثم رسمت على شفتيها ابتسامة واثقة لتعزز في نفسها الشعور بالانتصار على مخاوفها واليقين بوصولها إلى بر الحقيقة التي تبحث عنها.

(١٣)

كانت تشعر بحالة من النشاط غير عادية حين استيقظت من نومها ذلك الصباح.. وعلى شفتيها ترتسم ابتسامة عريضة وكأنها تحتضن الكون بأسره بهذه الابتسامة.. رافقها طيلة الليل في حلمها.. رأته ممسكًا بيدها ويسير بها على بساط حريري بلون السماء ويقودها نحو حديقة مترامية الأطراف مزروعة عن آخرها بالورود المختلفة الألوان.. ستخبره اليوم بأنها تحبه.. ربما لن يسمعها ولن يجيب عليها ولكن يكفيها أن تفصح عن مشاعرها له.. لم تُخفِ عنه أي شيء في حياتها.. طيلة الفترة الماضية التي لازمته فيها وهي تقص عليه حكايتها بجميع تفاصيلها منذ طفولتها.. روت له أيضًا ما سمعته من أمها عن تلك المذابح التي استهدفت بني

جلدتها من الأرمن.. وعن هروب أمها من بلدتها.. والأهوال التي لاقتها حتى وصلت إلى الإسكندرية واستقرت بها.. لم تعرف لها أبًا.. ربما قتل في إحدى المذابح.. أو ربما كانت ابنة أحد هؤلاء الجنود الذين كانوا يغتصبون نساء الأرمن في ذلك الوقت.. لا تدري.. كل ما تدريه أن أمها كانت تحملها جنينًا في أحشائها حين فرت من المذبحة.. لم تتحدث إليها أمها قط عن أبيها.. وهي لم تسألها كثيرًا.. اكتفت بذلك الرجل أبًا والذي تزوجته أمها في الإسكندرية وأنجبت منه شقيقها الأصغر سيفان.. ماتت أمها وزوجها في حادثة وتركا لها شقيقها لتعتني به.. أصبح كل عائلتها ومحور حياتها.. كان يحلم بالسفر.. ولكن القدر لم يمهله حتى يحقق حلمه.. اغتالته يد الحرب الغاشمة.. أما هي إيفيلين لم تعرف لها وطنًا سوى الإسكندرية.. عشقتها كأنها نبتت من أرضها.. امتزجت ببحرها وكأنها إحدى

حورياته.. ربما كان هذا هو السبب الذي جعلها ترفض الرحيل مع كارلوس وقت الحرب.. وربما لم تكن تحبه من البداية ولم ترغب في الزواج منه.. فالحب الحقيقي من الصعب استبداله أو التخلي عنه بسهولة.. وهي تحب ذلك الغريب الذي لم تعرف عنه سوى اسمه.. تحبه إلى الحد الذي جعلها تمضي كل وقتها إلى جواره دون كلل أو ملل وهو العاجز حتى عن النظر إليها فضلًا عن الحديث معها.. إن للحب أمورًا عجيبة بحق..

وصلت مبكرة إلى المستشفى وهرعت إلى غرفة مريضها وحبيبها.. وجدته على ذات الحال.. جلست على طرف الفراش إلى جواره وأمسكت بيده وأخذت تتلو صلواتها من أجله.. أحست بيده تضغط بوهن على يدها.. لم تصدق الأمر في البداية وظنت نفسها تتوهم.. نظرت إلى يده فرأت

أصابعه تتحرك ببطء.. تسارعت دقات قلبها وهي ترقبه.. فتح عينيه بصعوبة بالغة.. شهقت من المفاجأة.. نظر إليها وكأنه يتعرف على العالم المحيط به من خلالها.. هزت له رأسها إيجابًا أن نعم.. أنا هنا إلى جوارك.. أنا عالمك.. أنا التي انتظرت عودتك إلى الحياة دون أن أدري من تكون.. أنا التي سهرت ليالٍ طوال تطببك وترعاك.. ابتسم لها ابتسامة هزيلة كانت بمثابة إشراقة الشمس في نهار غائم.. غادرت الغرفة مسرعة لتنادي أحد الأطباء الذي عاد معها ليتأكد مما أخبرته به.. كان أنطونيو لا يزال يتطلع إلى الغرفة من حوله بعينين ذابلتين.. فحصه الطبيب ليطمئن إلى أن بدأ يستعيد عافيته من جديد.. تحدث إليه الطبيب وطلب منه أن يحرك أصابعه أو يجيب بعينيه إن كان يسمعه.. ابتسم أنطونيو للطبيب ونظر له وهو يغمض عينيه ثم يعود ويفتحمها علامة على أنه يستطيع السمع.. اتسعت ابتسامة الطبيب وتنهد براحة..

وأخبر إيفيلين أنه سيتصل بوالده جيانو باولو لإبلاغه.. انقبض قلبها لوهلة.. ولكنها تظاهرت بتأييد ما قاله الطبيب الذي غادر الغرفة وتركها مع مريضها..

ظل أنطونيو ينظر إلى إيفيلين بعينين ملؤهما الامتنان.. أرخت جفنيها وأحست بدقات قلبها تكاد ترقص فرحًا.. إنه يعرف إذن ما قامت به من أجله.. ارتبكت قليلًا أتراه يعرف أيضًا عن كل ما كانت تقصه عليه وهو في غيبوبته.. اتسعت ابتسامة أنطونيو وهو ينظر إليها وتكلم لأول مرة..

- هل بإمكانك أن تخرجيني من هنا؟

غمرتها سعادة بالغة.. إنها المرة الأولى التي تسمع فيها صوته.. كم هومفعم بالرجولة كملامحه تمامًا.. احتضنته بعينيها وهي تجيب سؤاله..

- بكل تأكيد.. إن سمح لك الطبيب بالمغادرة..

- لا يا إيفيلين.. أرغب في مغادرة هذا المكان الآن..

أصابها الذهول..

- أتعرف إسمي؟

- نعم.. لقد أخبرتني به من قبل حين كنتِ تقصين عليّ حكايتك ذات مرة..

شعرت بالخجل والارتباك.. أدركت أنه كان يسمع كل ما تحكيه له من تفاصيل عن حياتها.. إذن فهو يعرف كل شيء.. سيهجرها بلا شك بعد كل ما عرفه عن حياتها.. بدا عليها الوجوم وهي تتحدث إليه..

- قال الطبيب أنه سيبلغ والدك بأنك أفقت من غيبوبتك.. وستعود معه بالتأكيد إلى بيت عائلتك يا أنطونيو..

- إسمي إسماعيل يا إيفيلين.. إسماعيل فخر الدين..

اتسعت حدقتاها غير مستوعبة لما سمعته منه.. وهزت رأسها بتعجب..

- لا أفهم..

- سأفهمك لاحقًا.. أعدكِ أن أحكي لكِ كل شيء عني.. كما قصصتي عليّ كل شيء عنكِ.. ولكن ساعديني أولًا أن أغادر هذه المستشفى..

– سأساعدك.. سأفعل أي شيء من أجلك.. ولكن إلى أين تريد الذهاب؟

– هل بإمكانك استضافتي في منزلك لبعض الوقت؟ ودون أن يعرف مكاني أي شخص على الإطلاق؟ وقبل أن يأتي السيد جيانو باولو إلى هنا؟

كادت تسقط مغشيًا عليها ولكنها استعادت توازنها وهي تومىء له برأسها إيجابًا..

(١٤)

صفت سارة رياض سيارتها في موقف للسيارات بالقرب من شارع فؤاد وترجلت متوجهة إلى مطعم سانتا لوتشيا في شارع سعد زغلول.. وصلت إلى المطعم وما إن وقفت أمام بوابته الخشبية حتى عاودتها ذكريات تلك الليلة التي اصطحب فيها أنطونيو جيانو فتاته سارة سمعان للعشاء في نفس المكان.. ابتسمت ابتسامة ساخرة وهي تنفض عن رأسها غبار تلك الذكرى.. اقتنعت أخيرًا أنها ليست سارة سمعان وإن كانت تحمل ذات الروح التي حملتها تلك الفتاة.. إلا أن كلًا منهما لها نفسًا تختلف عن الأخرى وحياة وأحلام ومشاعر مختلفة كذلك.. دفعت الباب الخشبي ودلفت إلى الداخل بخطوات ثابتة.. ورسمت ابتسامة واثقة

على شفتيها.. تلفتت حولها بحثًا عن ياسر زهران ولكنها لم تجده فانتقت إحدى الطاولات وجلست عليها وهي تتطلع إلى المكان بعين فضولها.. لم تأت إليه من قبل في هذه الحياة.. رن هاتفها المحمول ووجدت إسم ياسر زهران على شاشته.. أجابت الاتصال بنبرة هادئة أخفت خلفها قليلًا من التوتر وكثيرًا من النفور.. أخبرها ياسر أنه في الطريق إلى المطعم وطلب منها الصعود للطابق الأعلى ولكنها رفضت وطلبت منه الانضمام إليها على الطاولة التي اختارتها في الطابق الأسفل وأنهت المكالمة معه على وجه السرعة.. زادها الأمر نفورًا منه ولكنها حاولت جاهدة تدريب نفسها على التعامل معه بهدوء وبرود أيضًا.. عجيب أمره هذا الرجل.. لماذا يصر دائمًا على أن يضعها في مواجهة ذكرياتها عن تلك الفتاة سارة سمعان.. تذكرت المرة الأولى التي التقته فيها.. قدمه إليها نديم نصار وأخبرها أن ياسر منذ قرأ رواية

متروبول لعمر سراج وعرف من نديم أن ثمة صداقة تربطه بسارة بطلة الرواية وهو أي ياسر زهران يلح عليه في مقابلتها.. تعلل له بأنه يهتم بكل ما يتعلق بالباراسيكولوجي والروحانيات وأن لديه فضولًا لا أكثر ليعرف الفتاة التي مرت بتجربة تناسخ الأرواح ربما تبادل معها الحديث عن بعض الخبرات والتجارب الذي مر بها هو نفسه.. ولكن منذ اللقاء الأول بينهما وسارة ينتابها شعورٌ بنفور غريب منه.. لم تستطع أن تفسره أو تعرف له سببًا.. وفي كل مرة كانت تراه في أي مناسبة أو تلتقيه مصادفة يتنامى هذا الشعور بداخلها فأصبحت تتحاشى لقاءه وتتهرب من رؤيته.. ولكنها اليوم قررت تخطي كل هذه الحواجز النفسية لأنها بحاجة إلى معرفة الحقيقة.. حقيقة أمر هذا الرجل الذي باتت متأكدة أنه يخفي الكثير عنها وأن هناك علاقة ما تربطه بعمر سراج..

وصل ياسر إلى سانتا لوتشيا ولمحته سارة وهو يدخل من الباب وأعادت رسم ابتسامتها الهادئة من جديد وهو يقترب من طاولتها التي ما إن جلس عليها حتى صوب إليها نظرة ثاقبة متفحصة أربكتها ولكنها استطاعت أن تخفي ارتباكها فبدت جامدة الملامح.. انفجر هو ضاحكًا.. فازدادت هي غيظًا وحنقًا وبغضب لم تداره سألته..

– لا أفهم ما الذي يضحك هكذا.. أظن أنه ليس من اللائق ما تفعله..

أعاد تفحصها بنظراته مرة أخرى وبدت لمعة غريبة في عينيه أخافتها بعض الشيء..

– أعتذر.. ولكنكِ تشعريني كلما التقينا أنكِ رأيتِ شيطانًا.. بالرغم من أني لم أؤذكِ قط يا عزيزتي..

أصابها الوجوم.. إنه يقرأ ما يدور بذهنها بطريقة عجيبة أذهلتها.. لانت ملامحها بعض الشيء لشعورها بالإحراج.. وتلجلجت قليلًا في كلامها..

- لا.. ولكن.. لا أدري.. أعتذر على أية حال..

- ليس هناك ما يدعوكِ للإعتذار عزيزتي سارة.. فقط كل ما أرجوه منكِ أن تمنحينا الفرصة لكي نصبح أصدقاء.. من يدري ربما وجدتني صديقًا وفيًا كما كنت دائمًا..

قطبت حاجبيها وهي تنظر له بعدم فهم..

- عفوًا.. ماذا تعني بكما كنت دائمًا!!

ابتسم ابتسامة ذات مغزى زادت من حيرتها ولكنه أجابها بنبرة واثقة..

- أعني كما كنت مع أصدقائي الذين عرفتهم في جميع حيواتي..

- ما زلت مصرًا على الحديث بالألغاز..

- لا أبدًا.. أنا واضح جدًا.. وأنتِ تحديدًا تعلمين جيدًا أن الروح التي تسكننا عاشت من قبل حياة سابقة وربما حيوات عدة.. فما الذي يثير استغرابك في حديثي.. دعينا الآن من هذا الجدل الذي لن يجدي نفعًا.. وطمئنيني كيف حال عمر..

بدا التأثر على وجه سارة عند سماعها إسم عمر.. تنهدت بأسى..

- كما هو..

حدقت في وجه ياسر الذي لم يبد عليه أي تأثر لما أصاب عمر.. ثم استأنفت كلامها..

- هل لي أن أسألك كيف عرفت أني زرته هذا الصباح؟

- يمكنني بالطبع ادعاء أي شيء ولكني لن أكذب عليكِ.. ببساطة رأيتك هناك..

ضحكت سارة هازئة.. وسألته متعجبة..

- رأيتني هناك!!.. تدعي أنك رأيتني وأنا في القاهرة وأنت لم تبرح الإسكندرية؟.. إذا لم تكن تلك كذبة.. فما يكون الكذب إذن بالنسبة لك؟

أجابها بمنتهى الثقة والهدوء..

– بالفعل أنا لا أكذب فيما قلته.. لقد رأيتك هناك.. رأيتك بعيني الثالثة يا عزيزتي..

وجمت سارة وشحب وجهها.. وظلت تنظر إليه بارتياب غير مصدقة..

(١٥)

لم يبرح إسماعيل غرفته بفندق سان ستيفانو منذ أمس بعد أن عنفه والده على الحديث مع ذلك العامل.. وبالرغم من غضب إسماعيل من حدة والده معه إلا أنه كان سعيدًا في الوقت ذاته أنه عثر على الدليل الذي سيقوده للفتاة.. لم يكن من السهل بالطبع أن يسأل عامل الفندق عنها من أول مرة.. كما لم يكن من السهل أيضًا إيجاد حجة منطقية ومقبولة ليبرر بها إسماعيل إلى إيليا كرياكوس - وهو إسم عامل الفندق - للكلام معه.. ألف له حكاية وهمية عن أنه يشبه والد أحد زملائه في الدراسة وتجاذبا أطراف الحديث.. ظن إسماعيل في بداية الأمر أن الفتاة ربما تكون ابنته ولكنه عرف من خلال حديثه معه أنه لم يتزوج من قبل حيث كان يعمل خادمًا في

كنيسة سان ستيفانو التي كانت مقامة على نفس البقعة من الأرض والتي بناها الكونت إيتان زيزينيا مع القصر الذي بناه لنفسه وأقام فيه عندما استقر في المنطقة وأطلق عليها إسم كنيسة القديس ستيفان.. والتي سمي الفندق على اسمها بعد ذلك.. وبعد أن تهدمت الكنيسة والقصر بمدافع الأسطول البريطاني حين ضرب أسطولهم الإسكندرية وتم بناء الفندق انتقل إيليا للعمل به وتدرج في وظيفته حتى أصبح مشرفًا على العاملين بالمطعم..

صحيح أن إسماعيل لم يحصل على أي معلومة تفيده في الوصول إلى الفتاة ولكنه استمتع بالحديث إلى ذلك الرجل الذي كان يتكلم عن المكان وكأنه عاشقٌ متيم.. كان إسماعيل قد سمع منذ فترة حديث والده وزوج أخته عن المهندس المعماري بوجوس نوبار الذي بنى الفندق وهو ابن

نوبار باشا وعن الحفل الرائع الذي أقيم بمناسبة افتتاح الفندق وحضره الخديوي توفيق.. شعر بالزهو كونه يقضي بعض من أيام العطلة في ذات الفندق الذي يرتاده الوجهاء والأثرياء.. ولكن سرعان ما تضاءل هذا الشعور بداخله وهو يتذكر تلك الفتاة بمظهرها البسيط وملابسها الفقيرة.. وانتابه الخوف من ألا يستطيع التقرب منها بسبب ثرائه وفقرها.. هز رأسه نافيًا هذه الأفكار القاتمة.. وقرر المجازفة مرة أخرى والحديث إلى إيليا مجددًا علّه يصل إلى بغيته..

تسلل إسماعيل من غرفته دون علم والديه واتجه إلى مطعم الفندق باحثًا عن إيليا كرياكوس.. رآه يقف مع تلك الفتاة مرة أخرى ولمحه يخرج من جيبه بعض العملات النقدية ويمنحها لها وهي تنظر له بامتنان وعرفان.. اتجه إسماعيل ناحيتهما مسرعًا في ذات اللحظة التي كانت الفتاة تهم

بالانصراف.. اصطدمت به دون قصد منها.. ظل واقفًا أمامها يتأمل وجهها الجميل.. تورد وجهها خجلًا واندفعت تجري من أمامه دون أي كلمة واحدة.. رآه إيليا فرحب به واعتذر له عما بدر من مريم.. إسمها مريم إذن.. وأخيرًا استطاع أن يعرف اسمها.. انتهزها فرصة للحديث عنها ومعرفة من تكون..

– مريم مرقس أرمانيوس.. في السادسة عشرة من العمر.. يتيمة الأب.. فقيرة الحال.. ترعى أمها الكفيفة.. كان عمها بطرس أرمانيوس قسًا في كنيسة سان ستيفانو وهو من كان يتولى أمرها وأمر والدتها ولكنه مات بسكتة قلبية في اليوم الذي هدمت فيه الكنيسة.. لم يتحمل مفارقتها ففارق الحياة حزنًا.. ومنذ ذلك الحين وأنا أتولى أمر الفتاة..

بدا التأثر والأسف على وجه إسماعيل.. لم يجد كلمات مناسبة يعقب بها على ما سمعه من حكاية موجعة عن فتاته.. دس يده في جيبه وأخرج بعض النقود وأعطاها لإيليا وطلب منه أن يمنحها لمريم دون أن يخبرها عن مصدرها.. ابتسم له إيليا بحب وربت على كتفه وتمتم ببعض الصلوات بصوت خفيض ليباركه بها..

عاد إسماعيل إلى غرفته وقد تلبدت سماء أحلامه بالغيوم.. تبددت آماله في التقرب إليها بعد أن عرف هويتها.. سترفضه بلا شك.. ولكنها بحاجة إلى مساعدة كما عرف من إيليا.. سيساعدها إذن دون الإفصاح لها عن هويته الحقيقية.. تسلل بصيص من الضوء إلى عتمة نفسه وهو يخطط للأمر.. وانتشله من تفكيره بضع طرقات خافتة على باب غرفته.. سمع صوت شقيقته فاطمة من خلف باب الغرفة تستأذنه في

الدخول.. فتح لها الباب وأدخلها وهو يتظاهر بالعبوس ويفتعل الضيق حتى يفوت عليها فرصة لومه على تصرفه أمس والذي بدا غير لائق لجميع أفراد أسرته.. حاولت ترضيته وتهدئته وتبرير تعنيف والده له بأنه يحرص على أن يظهر ابنه دائمًا بالمظهر اللائق بين أفراد المجتمع المحيط بهم.. كان يستمع إليها وهو لا يزال شاردًا يفكر في أمر مريم.. أفاق على صوت فاطمة وهي تتحدث عن رقية قريبة زوجها أمين التي رشحها جميع أفراد أسرته لتكون عروسًا له في المستقبل القريب وأن عليه الاستعداد للقائها في المساء في الحفلة الموسيقية التي يقيمها الفندق الليلة..

(١٦)

في ردهة المستشفى التي تؤدي إلى غرفة العناية المركزة التي يرقد فيها عمر كانت غادة تركض بلهفة حتى وصلت للغرفة ودخلتها مسرعة.. وجدت الممرضة التي هاتفتها منذ حوالي الساعة تعلق له بعض المحاليل الطبية وبجوارها أحد الأطباء يدون ملاحظاته في الملف الخاص بعمر.. التقطت غادة أنفاسها بصعوبة وتوجهت بحديثها إلى الممرضة..

- هل أفاق حقًا كما أخبرتني في مكالمتك الهاتفية؟

التفتت لها الممرضة وابتسمت مؤكدة..

- نعم.. ردد بعض الأسماء لا أكثر..

– أسماء من؟

– إيفيلين.. مريم.. سارة.. وإسمك أنتِ غادة..

نظرت غادة إلى عمر بحب وقلق..

– أيعني هذا أنه أفاق من غيبوبته.. ولكن لماذا لم يزل مغمض العينين إذن وفاقدًا الوعي؟

كان الطبيب قد انتهى من كتابة ملاحظته اليومية في ملف عمر وأعطاه للممرضة.. والتفت إلى غادة يطمئنها..

– اطمئني آنسة غادة.. حالته مطمئنة أو بالأحرى مستقرة.. كانت إفاقة لحظية.. ولكنها مؤشر جيد بأن الحالة تتحسن..

غادر الطبيب الغرفة وظلت غادة تقف بجوار السرير الذي يرقد عليه عمر تتأمله بقلق بالغ.. ربتت الممرضة على كتفها لتنبهها أنها أنهت عملها معه وستنصرف لمتابعة بقية المرضى.. أجزلت لها غادة العطاء هذه المرة ومنحتها مبلغًا مضاعفًا من المال.. غادرت الممرضة وتركت غادة بمفردها مع عمر..

جلست غادة على طرف فراش عمر وأمسكت بيده وربتت عليها بحنو..

- أعلم أنك تسمعني الآن يا عمر.. دعوت الله من أجلك كثيرًا.. بكيت حتى جفت مقلتاي وأنا أرجوه أن يعيدك للحياة مرة أخرى من أجلي.. كما عرفت الآن أني كنت طيلة الوقت معك في قلبك ووجدانك وإلا لما نطقت بإسمي حين

أفقت لبرهة قصيرة.. ولكن من تكون مريم؟.. أعرف سارة بالتأكيد وأظنني أعرف إيفيلين أيضًا.. كثيرًا ما يتردد هذا الإسم بداخلي ولا أدري سببًا واضحًا لذلك.. ولكن من تكون مريم هذه؟.. لم تخبرني من قبل بأنك عرفت أو تعرف فتاة بهذا الإسم.. أرجوك يا حبيبي.. أفق.. واحكِ لي كل شيء.. أتوق سماع صوتك من جديد.. أشتاق إلى حديثنا ونزهاتنا.. ونقاشاتنا حول الكتب التي كنا نقرأها معًا.. هل أطمئنك كذبًا أني بخير؟.. لا.. لست بخير يا عمر.. ولا الحياة هي ذات الحياة بدونك.. صحيح قبل أن أنسى.. رأيت سارة المرة السابقة حين أتيت لزيارتك.. ولكني تواريت بعيدًا إلى أن غادرت هي غرفتك.. لم أشأ أن تراني.. أعلم أنها لم تعد تهتم لأمرك ولكني أحترم ذكرياتكما معًا.. كان سليم هنا أيضًا ترافقه دينا.. ويبدو أن دينا أخبرت سارة بأمر ما جعل الأخيرة تتوتر بصورة ملحوظة حتى أنها لم

تمكث وقتًا طويلًا في غرفتك.. أثرثر كثيرًا الآن.. اعذرني يا حبيبي.. ولكني حقًا أرغب في الحديث معك عن كل شيء وأي شيء.. أرجوك يا عمر.. أفق.. عد إليّ.. فأنا لم أعد أطيق العيش وأنت غائب عني وعن الحياة..

تمتم عمر بكلمات غير مفهومة بصوت خفيض لم تسمع غادة.. وخُيل إليها أنه يبتسم.. اغرورقت عيناها بدموع فرحِة.. وأمطرت وجهه بقبلاتها وهي لا تزال تمسك بيده.. شعرت بيده تضغط على يدها بخفة ولين.. انكفأت على صدره وانفجرت في البكاء.. ظلت تبكي حتى راحت في نوم عميق وهي لا تزال تضع رأسها على صدره..

(١٧)

سمحت له بالإقامة في غرفة سيفان.. كان أول شخص يطأ الغرفة منذ رحيل شقيقها.. تركته نائمًا طوال النهار وذهبت هي إلى عملها.. لم يعلم أحد أنها وراء اختفاء أنطونيو جيانو من المستشفى.. تسللت به ليلًا من المكان دون أن يلحظهما أحد.. وفي صباح اليوم التالي عندما ذهبت إلى هناك تظاهرت بالصدمة لاختفائه وظلت تتقصى الأمر من الممرضات والأطباء وتفتعل الحزن لفقدانه.. أتقنت الدور جيدًا.. يئسوا من العثور عليه وتأكدوا أنه غادر برغبته حين أبلغهم والده أن هذا هو دأب ابنه.. فتوقفوا عن البحث..

كانت إيفيلين تتركه في المنزل لساعات طويلة في النهار وتعود له في المساء لتعتني به ويتجاذبا أطراف الحديث.. وجوده في منزلها أعاد الحياة للمكان من جديد.. أما هو فكان يقضي نهاره يكتب ما رآه من حلم أثناء فترة غيبوبته.. كان حريصًا على تسجيل كل التفاصيل التي مرت به في ذلك الحلم العجيب أوالذي كان يعتقده حلمًا.. وبعدما تعود إيفيلين من العمل.. يتناولان الطعام معًا ثم يقص عليها ما كتبه في يومه.. كانت تستمع إليه بإندهاش وكأنها طفلة تشاهد لأول مرة ألعابًا نارية تنطلق في السماء.. كان حبها له يزداد يومًا بعد يوم.. وكان إعجابه بذكاء عقلها وفطنتها ونقاء سريرتها يملأ كيانه بمرور الوقت..

خرجا سويًا ذات مساء يسيران على الكورنيش بمحاذاة البحر وقبل أن يصلا إلى محطة الرمل استوقفها ونظر في

عينيها واعترف لها بحبه.. مادت الأرض بها من شدة الفرح.. لم تصدق ما سمعته منه.. أعاده عليها مرة أخرى.. عانقته والسعادة تغمرها.. في ذات المكان كان يسير ذات يوم مع فتاته سارة سمعان التي أحبها أو ظن كذلك.. لم يعد يدري.. كل ما يعرفه أنها خدعته وكذبت عليه وأوهمته أنها فتاة يونانية حتى تتجسس عليه لصالح بني جلدتها من اليهود.. أو هكذا كان يعتقد آنذاك.. بعدما باح لإيفيلين بحبه شعر بالندم لبرهة.. خشي أن تكون مشاعره تجاهها تعويضًا عن الفقد الذي أحسه بعد رحيل سارة.. ولكنه سرعان ما طرد هذا الهاجس وطمأن نفسه أنه يحب إيفيلين بالفعل.. لأنه يعرفها حق المعرفة.. لم تخف عنه شيئًا.. ولم تزيف له أمرًا.. كانت صادقة معه إلى أقصى حد.. وواضحة في كل شيء..

عاودا المسير وهي تتأبط ذراعه وتسند رأسها على كتفه.. استوقفها ثانية بعد عدة خطوات.. نظرت له باستغراب مستفهمة..

- هل تقبلين الزواج مني يا إيفيلين؟

فغرت فاها من الدهشة وانسابت دموعها وهي تضحك في الوقت نفسه.. ضمها إليها بحنان وهمس في أذنها بأنه يرغب في الزواج منها.. هزت رأسها إيجابًا وقالت بصوت مرتبك مختلط بدموعها..

- بالطبع أقبل..

- إذن فلنذهب في صباح الغد إلى الكنيسة لنتمم الزواج.. أما الآن فدعيني أحتفل بكِ على طريقتي..

استأنفا السير على الكورنيش وشعور بالراحة والسكينة يغمرها.. تذكرت ذلك الحلم الجميل الذي رأته في تلك الليلة التي سبقت إفاقته من الغيبوبة.. حين كان يسير بها على بساط من الحرير بلون السماء الصافية وتلك الحديقة المملوءة بالورود التي قادها إليها.. تفسر الحلم إذن.. حلق بها إلى السماء السابعة بطلبه الزواج منها ومنحها ورود العالم بأكمله.. تمتمت بصوت خفيض..

- أحببتك منذ أن وقعت عيناي عليك..

ضحك بزهوه المعتاد..

- أعرف ذلك..

تورد وجهها خجلًا والتصقت به وسارا معًا يخططان لمستقبلهما.. وعدها بالأمان والحماية والحب.. وتذكر فجأة ذات الوعد الذي منحه لسارة ولكنه لم يتمكن من تحقيقه.. انتابته رجفة مفاجأة عللها لها ببرودةالطقس.. وضمها إليه أكثر وبداخله إصرار على أن يفي بوعده هذه المرة مهما كانت الظروف..

(١٨)

لم تنم ليلتها.. يبدو أن الأرق أصبح رفيقًا لها.. كادت تُجن مما قاله ياسر زهران.. لم تتمالك شعورها وهو يعترف لها أنه يتلصص عليها من خلال العين الثالثة.. وكأنه أراد أن يؤكد لها أن لديه من القدرات ما لا تستطيع تكذيبه أو نفيه.. تركته وغادرت مطعم سانتا لوتشيا وهي في قمة غضبها.. حاول اللحاق بها ولكنها نهرته.. وابتعدت.. جرت إلى المكان الذي صفت فيه سيارتها وكأنها تفر من شبح مخيف.. ما الذي يسعى إليه هذا الرجل.. ذهبت للقائه وفي ظنها أنها ستعود بإجابات لبعض الأسئلة وعادت محملة بالمزيد منها.. لم يكن الوقت مناسبًا حين رجعت المنزل للاتصال بنديم نصار الذي تعرف أنه ينام مبكرًا.. ولا الاتصال بنانسي أيضًا في

لبنان حيث تقيم مع زوجها ميشيل مكسيم.. ظلت تدور في الشقة وتقطعها ذهابًا وإيابًا وكأنها تبحث عن شيء ما لا تعرف كنهه.. تذكرت فجأة أنها اشترتها من ياسر.. ستعرضها للبيع إذن.. ستعود إلى القاهرة وتترك الإسكندرية كلها حتى لا تجمعها به مدينة واحدة.. ألقت نفسها على أريكة غرفة المعيشة وانفجرت في البكاء حتى تهدجت أنفاسها.. لماذا يصر الجميع على فتح أبواب قد لا تنغلق أبدًا مرة ثانية.. كم كانت مخطئة حين استسلمت لذكريات تلك الفتاة التي شاركتها الروح من قبل في حياة سابقة.. أي لعنة تلك التي تطاردها.. لا لن تستلم لهذه الهواجس ولن تقع فريسة للخوف.. أخذت تتنفس بانتظام حتى استعادت هدوء أعصابها من جديد.. وعاودتها ذكرى تلك الليلة التي تشاجرت فيها مع عمر قبل أن ينتهي كل شيء بينهما..

بعدما التقت بعمر وتأكد أنهما عاشا حياة سابقة في الأربعينيات وبعد أن انتهى من كتابة روايته متروبول التي تروي تفاصيل تلك الحكاية والتي لاقت نجاحًا كبيرًا.. أصبح مولعًا بالقراءة عن كل ما يتعلق بالقدرات الروحية والاطلاع على جميع ما كُتب عن الباراسيكولجي.. عرف أن بإمكانه تطويع تلك القدرات.. وتذكر جلسات التنويم المغنطيسي التي أجراها له د. جلال توفيق واستطاع عن طريقها استعادة بعض تفاصيل حكاية ماريو جيانومع سارة سمعان.. فاهتم اهتمامًا بالغًا بممارسة التأمل meditation والتدريب على الوصول إلى حالة الصفاء الذهني التي تمكنه من التواصل مع الكون المحيط به.. كانت هي قد عرفته على صديقتها نانسي ناصيف التي لم تكن قد تزوجت بعد وكانت لا تزال تقيم في الإسكندرية في منزل عائلتها.. وحينما عرف عمر أن نانسي تواظب على حضور فصول اليوجا وعلى علم

بأسرار هذه الرياضة الذهنية.. فبدأ يعرف منها كيف يمارس تمارين اليوجا التي قادته إلى إتقان ممارسة التأمل ومنها استطاع أن يلج إلى ذلك العالم الروحاني.. اكتشف أن لديه القدرة على رؤية الأشياء عن بُعد وهو ما يطلقون عليه في هذا المجال مصطلح الجلاء البصري.. يرى بعين روحه.. العين الثالثة التي أخبرها ياسر ليلة أمس أن بإمكانه الرؤية بها أيضًا.. لم يخبرها عمر ما استطاع رؤيته عن طريق العين الثالثة ولم تهتم لسؤاله.. لم يكتف عمر بذلك ولكنه أصبح شخصًا غريب الأطوار بالنسبة لها.. يقضي معظم وقته في البحث عن الماضي.. لم يكن الماضي هو ما يعنيه في حد ذاته ولكن ما يمكنه استخلاصه منه للكتابة عنه.. كان يبحث عن رواية جديدة تحقق له النجاح الذي حققته روايته متروبول من قبل.. أهمل سارة.. وتسلل الفتور إلى علاقتهما لانشغاله المستمر عنها.. حتى رأت غادة برفقته ذات يوم.. حين سألته

عنها.. عقب بكلمات مقتضبة.. مجرد صديقة.. كانت الهوة بينها وبين عمر تتسع في الوقت الذي كانت غادة تزداد قربًا منه.. حتى انفجر البركان الثائر بداخل سارة ذات ليلة وهدمت المعبد بأكمله وأحرقت كل الجسور التي تمتد بينها وبينه.. قررت إنهاء علاقتهما.. بالوقت استطاعت أن تتأكد أنه أحب فيها حكاية فتاة لم يعد لها وجود.. أو لم تكن موجودة من الأصل في شخصها.. سارة سمعان.. كما أيقنت أنه ليس ذات الرجل الذي كان من قبل حين عاش حياة بإسم ماريو جيانو.. كم كانت حمقاء حين سجنت سنين عمرها خلف قضبان ذلك الماضي الذي لم تكن تملكه ولم تكن جزءًا حقيقيًا منه.. تعافت من وهم حبها لعمر.. وعاودت استئناف حياتها متناسية أمر تلك الفتاة التي احتفظت ذاكرة روحها بتفاصيل حياتها.. ولكن ياسر زهران ليلة أمس

أعادها من جديد لتلك المتاهة التي بالكاد استطاعت أن تخرج منها..

كانت الساعة تقترب من الخامسة فجرًا وهي لا تزال مستيقظة تفكر في كل ما مرت به ولا تزال.. اتجهت إلى المطبخ وأعدت لنفسها فنجانًا من القهوة.. كادت ترتشف أول رشفة منه حين وصلتها رسالة نصية على هاتفها المحمول.. كانت من ياسر زهران.. قرأتها بصوت خفيض..

"عزيزتي سارة.. أعرف أنكِ جئتِ لمقابلتي ليلة أمس بحثًا عن المعرفة.. معرفة ما تجهلينه في الحكاية.. ولكنكِ تعجلتِ الرحيل.. على أيه حال أعتذر عما سببته لك من إنزعاج.. وأتمنى لكِ وقتًا ممتعًا الآن مع فنجان قهوتك..

وبالمناسبة يا عزيزتي.. دانيال كان محقًا منذ البداية.. فلم يكن ماريو يستحق سارة.. مثلما لم يكن عمر يستحقك.."

أعادت قراءة الجمل الأخيرة من الرسالة بشفاه مرتعشة

"..وأتمنى لكِ وقتًا ممتعًا الآن مع فنجان قهوتك.. وبالمناسبة يا عزيزتي.. دانيال كان محقًا منذ البداية.. فلم يكن ماريو يستحق سارة.. مثلما لم يكن عمر يستحقك.."

سقط فنجان القهوة من يدها وهي تنظر إلى شاشة هاتفها المحمول بذهول..

(١٩)

توقف أمام البحر يتأمل أمواجه المتلاحقة كأنفاسه التي لم تهدأ بعد.. بكى بكاء مريرًا لأول مرة في حياته.. رفع رأسه للسماء متوسلًا الخلاص.. تهاوى على الأرض ودفن وجهه بين ركبتيه وهو لا يزال يبكي.. كانت صور أحداث الأيام الماضية تتزاحم في مخيلته وتنقض عليه كوحش جائع ينهش قلبه الممزق.. لم يعد يرغب في الحياة كما يعجز عن وضع نهاية لها كما فعلت الفتاة المسكينة بعد تهديدات أسرته لها لكي تبتعد عنه.. ولكن ما ذنبها.. لم تكن تعرف من يكون.. لم تكن تعرف الحقيقة.. لقد أخفى عنها إسمه الحقيقي.. لقد كذب عليها من أجل أن يقترب منها فتسبب في موتها..

عاد بذاكرته إلى الوراء.. إلى بضعة أسابيع مضت.. التقى رقية في ذلك الحفل الموسيقي الذي أقامه الفندق.. فتاة جميلة ولكنها لم تترك في نفسه ذلك الأثر الذي تركته مريم منذ أن وقعت عيناه عليها.. ظل حائرًا طوال المساء ما بين عقله وقلبه.. العقل الذي يحاول إقناعه بالأمر الواقع والقبول برقية.. والقلب الذي يأبى الانصياع إلا لنبضه الذي تعلق بمريم.. لاحظت رقية شروده ولكن فاطمة عللت لها الأمر لطبيعته الخجولة.. انقضت السهرة ولكن حيرة إسماعيل بقيت تنمو بداخله كغابات استوائية.. أما رقيه فقد تعلقت به وباتت ترسم أحلامها المستقبلية لبيت يجمعها بها وأولاد يملأون البيت صخبًا وحياة..

غادرت أسرة إسماعيل فندق سان ستيفانو وعادوا إلى بيتهم في حي المنشية.. بيت عائلي.. جهزوا فيه شقة لكي

يتزوج بها إسماعيل.. أعدوا كل شيء سريعًا.. ظل إسماعيل صامتًا يشاهد ما يقومون به من ترتيبات للخطبة دون أن يبدي رأيه في أي شيء على الإطلاق.. كان يفكر في أمر مريم.. وكيف يعد نفسه للقائها.. كان قبل أن يغادر الفندق قد حصل على عنوان منزلها من إيليا..

في الصباح التالي ارتدى ملابس بسيطة.. اختار لنفسه إسم ميلاد.. وابتسم وهو يردد هذا الإسم الجديد.. إن وقوعه في حبها لهو بالفعل ميلاده الحقيقي.. توجه إلى بيتها في حي كرموز ودقات قلبه تسبقه إليها.. وصل إلى هناك وطاف بعينيه في أرجاء الحارة الصغيرة التي تسكن فيها.. خامره شعور بالإشفاق عليها والأسى لحالها.. وازداد تصميمًا على مساعدتها..

دق باب بيتها وقلبه يدق بلهفة ووجل.. فتحت له امرأة ضريرة عرف على الفور أنها أمها.. تلجلج ثم استجمع شجاعته وادعى أن العم إيليا قد أرسله ببعض المال.. منحها النقود.. وسألها عن مريم.. أبلغته أنها ذهبت لإحضار بعض الطعام.. فانصرف محبطًا.. لم يرها كما تمنى.. سار بضعة خطوات مبتدعًا عن البيت.. رآها آتية من بعيد.. حث خطاه نحوها.. أصابتها الدهشة لوجوده بالقرب من منزلها.. همت بسؤاله عن سبب مجيئه ولكنها أحجمت عن الكلام خجلًا.. ابتسم لها وكأنه قرأ ما يدور برأسها وأجابها دون أن تسأل بأن العم إيليا أرسله للاطمئنان عليهما هي وأمها.. لم يذكر لها أمر المال الذي أعطاه لأمها.. تحدثا قليلًا وشعرا وكأنهما يستكملان حديثًا قديمًا لا يعرفان متى وأين بدأ أول مرة.. وقبل أن يرحل عنها سألته عن إسمه.. أجابها (ميلاد).. تفحصت وجهه مليًا.. شعر بالارتباك وقبل أن تطرح عليه

أي سؤال آخر لم يعد نفسه للإجابة عليه.. استأذنها في الانصراف متعللًا بأن لديه عملًا لا يستطيع أن يتأخر عنه أكثر.. ودعته بعينين صافيتين يشي بريقهما عن أمنية بلقائه مرة ثانية.. واتجهت إلى منزلها وهي تحمل من الطعام القليل الذي أحضرته والكثير من السعادة التي منحها إياها هذا الزائر الوسيم..

انطلق إسماعيل إلى البحر.. أخذ يركض على الرمال كطفل صغير.. البحر.. صديقه الوفي الذي يأتمنه دائمًا على أسراره.. عبأ رئتيه بالهواء.. ونظر إلى السماء بعينين مبتهلتين.. خُيل إليه أنه يرى وجه مريم يرتسم بين السحاب فابتسم بِحُب.. واستأنف جريه على الرمال وهو يفرد ذراعيه على الجانبين وكأنه يحتضن العالم بأسره من فرط سعادته..

(٢٠)

غادر ياسر زهران الإسكندرية في الظهيرة وانطلق بسيارته متجهًا إلى مدينة الشيخ زايد حيث تقع فيلا مليكة الزاهد.. تلك الفيلا التي شهدت فصلًا من فصول حياة عاشها من قبل.. ذات صباح بعيد.. كان يشرف على تسليم مجموعة من الفيلات الجديدة في نفس التجمع السكني (الكمبوند) الذي تسكن فيه مليكة عهدت إليه إدارته بتنفيذهم.. انتهى من عمله وركب سيارته ليعود إلى الإسكندرية ولكنه ضل طريقه المؤدي إلى البوابة الرئيسية للخروج من الكمبوند وظل يلف في شوارعه على غير هدى.. فجأة ظهر أمام سيارته كلب من نوع الراعي الألماني (الجيرمان شيبرد) خارجًا يجري من حديقة فيلا.. داس على مكبح السيارة بكل

قوته وأوقف السيارة وهو يستشيط غضبًا.. بينما وقف الكلب ينبح أمام السيارة وهو يهز ذيله.. خرجت من الحديقة امرأة في بداية الخمسينات من عمرها.. جميلة وأنيقة وتبدو الارستقراطية جلية على ملامحها وأسلوب كلامها.. ابتسمت له ابتسامة هادئة معتذرة.. فأحس بالحرج وبادلها الابتسام.. سألها عن الطريق إلى بوابة الخروج.. وصفته له.. ودعته في البداية إلى تناول فنجانًا من القهوة معها في الحديقة.. حاول الاعتذار ولكنها أصرت.. دلها حدسها على أن هذا الرجل ليس عاديًا وربما ما استشعره كلبها أيضًا.. لم تخبره عما دار بذهنها في ذلك الوقت إلا بعد أن توطدت صداقتهما..

قدمت له نفسها.. مليكة الزاهد.. باحثة في مجال الطاقة الكونية والروحية وقارئة للحيوات السابقة.. قطب جبينه ونظر إليها في عدم فهم..

- عفوًا.. قراءة ماذا؟.. لم أفهم..

- Past life regression reading.. هكذا يطلقون عليها أو قراءة في الحياة السابقة..

أصابه الوجوم وبدا عليه الارتباك قليلًا.. هل تمزح هذه المرأة.. أم أنها استطاعت أن تسبر أغوار شخصيته بهذه السرعة إلى الحد الذي جعلها تعرف أنه يهتم بمثل هذه الأمور فأرادت أن تجذب انتباهه بحديثها هذا.. لاحظت مليكة ما حل بضيفها من شرود فأردفت قائلة وهي تبتسم ابتسامة واثقة..

– يبدو أنك ظننت أني أهذي.. أو أني أمزح مزحة سخيفة.. الحقيقة لا هذا ولا ذاك.. أنا جادة جدًا فيما قلت.. بالمناسبة يبدو أيضًا أن (جاجوار) – وهذا إسم كلبي – لاحظ شيئًا غير عاديًا يتعلق بك لأنه في العادة لا يفعل ما فعله مع الغرباء.. ولا يجري خارجًا من الحديقة إلى الشارع كما حدث مهما كان الأمر.. إلا إذا....

توقفت عن الكلام ونظرت إليه متفحصة تعابير وجهه.. كان ياسر يستمع إليها ذاهلًا ويحاول تجنب النظر إلى عينيها.. ابتسمت مليكة بانتصارها في الجولة الأولى.. استعاد ياسر رباطة جأشه وسألها بصوت مرتعش..

– لماذا توقفتِ عن الحديث؟.. إلا إذا ماذا يا عزيزتي؟

- إلا إذا رأى شيئًا لا أستطيع أنا رؤيته.. تعلم أن حاسة الإبصار في الكلاب تفوقنا نحن البشر ويرون ما لا نستطيع رؤيته.. أحيانًا..

أشارت بعينيها إلى فنجان قهوته على الطاولة أمامه..

- تفضل قهوتك قبل أن تبرد.. ويسعدني الاستماع لكل ما تريد قوله بعدما تنتهي منها..

تناول ياسر فنجان القهوة بحركة آلية وقربه من شفتيه وهو لا يزال غارقًا في ذهوله ولكنه في الوقت ذاته شعر أنه وجد ضالته التي كان يبحث عنها منذ فترة طويلة.. احتسى قهوته بتلذذ حين تبادر إلى ذهنه هذا الخاطر.. وبعد أن انتهى منها نظر إلى مليكة وهو يبتسم بترحاب وكأنه يدعوها إلى

الدخول إلى عالمه بعد أن فتحت له نافذة صغيرة ليطل منها على فضاء مجهول..

– أعتقد أني بحاجة بالفعل إلى الحديث معكِ عن بعض الأمور الغامضة المتعلقة بي.. ربما استطعتِ مساعدتي في فهمها..

وصل ياسر إلى فيلا مليكة وذكريات لقائهما الأول لا تزال تتراءى له في مخيلته.. صف سيارته وترجل منها متجهًا إلى باب الحديقة.. وضغط زرًا صغيرًا مثبتًا على الباب.. لتفتح له مضيفته وعلى وجهها ابتسامة رائقة مرحبة.. وخلفها يقف جاجوار يهز ذيله ويرحب بالضيف العزيز..

(٢١)

كان أنطونيو أو ماريو جيانو لا يزال يغط في نومٍ عميق بعد أن أمضى ليلته أمس ساهرًا يدون تفاصيل تلك الحكاية التي رآها أثناء غيبوبته والتي ظنها حلمًا.. وإيفيلين ترقد إلى جواره تتأمله بعينين والهتين.. مضى على زواجهما شهر أو يزيد.. كان حبها له يكبر في كل يوم.. إنه يختلف عن كل الرجال الذين صادفتهم في حياتها.. رجل له نكهة خاصة جدًا.. فتح عينيه ببطء ليراها تطالع قسماته وتحتضن ملامحه بنظراتها العاشقة.. جذبها إليه برفق وارتشف رحيق شفتيها بهدوء وتلذذ قبل أن يغادر الفراش استعدادًا للقاء بعض من معارفه القدامى ليعاود عمله في السينما مرة ثانية..

نهضت إيفيلين مسرعة من الفراش وجرت نحوه قبل أن يغادر غرفة النوم متجهًا إلى الحمام وتعلقت بذراعيها حول رقبته..

- ألن تخبرني ببقية حكاية مريم وإسماعيل؟

منحها قبلة خاطفة على شفتيها ثم أزاح ذراعيها برفق من حول رقبته..

- يمكنك قراءة الأوراق التي كتبتها ليلة أمس لحين عودتي في المساء..

نظرت له مقطبة جبينها متصنعة الضيق..

- وهل تظنني أطيق ابتعادك عني حتى المساء؟

ضحك وهو يغادر الغرفة..

-ولا أنا يا حبيبتي أطيقه ولكني مضطر.. يجب علي أن أعاود العمل من جديد فلدي الآن مسؤوليات جسيمة.. أنسيتي أني أصبحت زوجًا وربما أصبح أيضًا أبًا عن قريب.. لابد لي أن أعمل حتى أوفر لأسرتي الحياة اللائقة التي تستحقها.. أذكر أنكِ أخبرتني من قبل أنه لم تعد بكِ رغبة لاستمرارك في العمل بالمستشفى..

غمز لها بعينه قبل أن يتوارى عن نظرها.. تابعته بعينين ملؤهما الامتنان والتقدير وارتسمت على شفتيها ابتسامة هانئة واتجهت إلى المطبخ لتعد لهما طعام الإفطار..

جلست على أريكة غرفة المعيشة تقرأ ما خطته يمين حبيبها ليلة أمس.. انسابت دموعها كشلالات غزيرة لانتحار

مريم.. وتألمت لألم إسماعيل.. كانت حروف أنطونيو تنبض بالحياة أمام عينيها.. حتى أنها لم تشعر بمرور الوقت وهي غارقة في تفاصيل تلك الحكاية تعيد قراءتها مرة تلو الأخرى..

عاد أنطونيو في المساء فوجدها ما زالت تقرأ فيما كتبه عن إسماعيل ومريم.. لم يتصور أن الحكاية ستثير إعجابها وفضولها إلى هذا الحد.. لم يشأ أن يطلعها على ذلك الشعور الدفين لديه أنه هو وإسماعيل يربطهما شيء مشترك لا يدري بعد ما هو.. ربما لن تصدقه.. في كل الأحوال إن الحكاية التي تُليت عليه بشكل أو بآخر في غيبوبته ستكون هي بوابة عودته للعمل في السينما من جديد..

استقبلته إيفيلين بحب ولهفة كالمعتاد.. جلسا سويًا في غرفة المعيشة وحكى لها عما دار في يومه وزف لها بشرى عودته للعمل خلال الأيام القليلة القادمة.. كان قد التقى صديقًا له من أبناء الجالية الإيطالية وحكى له عن ذلك الحلم الذي راوده وعن رغبته في إخراجه كفيلم سينمائي.. كان صديقه هذا على صلة وثيقة بالمصور السينمائي ألفيزي أورفانيللي ووعده أن يعرض الأمر على أورفانيللي الذي بدوره يمكنه أن يعرضه على توجو مزراحي ربما ساعداه في تنفيذه.. كانت إيفيلين تستمع إليه بقلب مبتهل إلى الله أن يحقق له كل ما يرجوه..

صمت أنطونيو قليلًا وبدا عليه التفكير في أمر مهم.. ثم نظر إلى إيفيلين وقد أطلت الحيرة من عينيه..

- أحتاج إلى إسم جديد.. فلن يمكنني العودة لعملي بذات الإسم الذي عرفني به الجميع من قبل.. سينال مني الإنجليز حينها.. بالتأكيد لم ينسوا بعد أني كنت أتجسس عليهم لصالح الألمان..

بدا الذعر على وجه إيفيلين والتصقت به وهي تضمه إليها بخوف حقيقي..

- إذا كانت عودتك لعملك ستتسبب لك في أي مكروه.. أرجوك لا تفعل.. لا داعي للمجازفة إذن..

ضمها إليه بحنان وطمأنها..

- لا تقلقي يا حبيبتي.. فلم أكن مخرجًا مشهورًا من قبل.. في الحقيقة لم أنفذ أي عمل بالفعل.. كان الإخراج السينمائي

مجرد ستار بالنسبة لي.. ربما يعرفون إسم ماريو جيانو ولكن لا يعرفونني أنا شخصيًا.. سأطلق على نفسي إسمًا جديدًا ولن يكون هناك أي خطر عليّ .. ما رأيك في إسم طوني سمعان؟..

نظرت له نظرة ذات مغزى وبدا عليها الوجوم والانزعاج..

- سمعان؟ ألهذا الحد ما زلت متعلقًا بذكراها!..

انتبه إلى أنه ارتكب خطأ غير مقصود فقهقه ضاحكًا..

- حبيبتي إيفيلين.. لقد ماتت سارة والموتى لا يعودون من الموت.. ربما ستظل ذكراها تطفو على سطح وجداني من حين لآخر ولكن لا يعني هذا أني ما زلت متعلقًا بها.. لقد

خدعتني لتنال مني لصالح بني جلدتها من اليهود.. أتظنين أني ما زلت أحبها بعد خديعتها؟.. أنا أحبك يا إيفيلين.. أحبك بقلبي وعقلي وكل كياني وإلا ما كنت تزوجتك يا حبيبتي.. كل ما في الأمر أنه أول إسم خطر ببالي وبدا لي إسمًا فنيًا حين رددته بيني وبين نفسي قبل أن ألقيه على مسامعك..

نكست إيفيلين رأسها شاعرة بالخجل ثم نظرت إليه وقد زينت شفتيها ابتسامة معتذرة..

- حسنًا أيها المخرج السينمائي طوني سمعان.. متى ستبدأ العمل في فيلمك الجديد؟

(٢٢)

إن الحب لا يأتينا.. ولكننا نحن من نذهب إليه حيث ينتظرنا.. إنه يبحث عنّا كما نبحث عنه.. ينادي علينا لنتبعه.. يضع لنا ورودًا على دربنا نستدل بها على الطريق الصحيح.. يمد لنا يدًا حانية تأخذنا إلى عالم لا يشبه سواه.. يمنحنا تذكرة عبور إلى جنة لم يطأها إنس ولا جان قلبنا.. جنة أحلامنا.. ويمنح من نحب جواز مرور أبدي إلى عالمنا.. إنه تلك العصا السحرية التي تحيلنا إلى مخلوقات نورانية تسبغ على الكون وهجًا وحياة.. ربما كانت قد نسيت الحب في زحام تلك الأحداث الغريبة التي تمر بها منذ فترة ليست بالقصيرة.. وربما تكون قد تناسته متعمدة بعدما خط الفراق كلمته الأخيرة في قصتها هي وعمر.. كل ما أصبح يشغل

بالها الآن أن تتمكن من الخروج من تلك المتاهة التي تبتلع أيامها.. دعاها نديم نصار لحضور ندوة يقيمها صديق له يولي اهتمامًا كبيرًا بتاريخ الإسكندرية على مر العصور وهو يحيى غريب.. لمناقشة ما آل إليه حال المدينة بسبب يد الإهمال التي طالتها وشوهت كل ما هو جميل بها.. استهواها موضوع الندوة فوافقت على مرافقة نديم لحضورها..

يحيى غريب.. في أوائل الأربعينات من العمر.. خمري البشرة.. دقيق الملامح.. أسود الشعر.. تحسه لأول وهلة وكأنه أحد آلهة الإغريق.. تخرج في كلية الحقوق التي التحق بها بناء على رغبة والده المحامي الشهير إبراهيم غريب ولكن يحيى لم يعمل قط بالمحاماة.. اتجه إلى دراسة التصوير الفوتوغرافي بعد تخرجه.. كانت عيناه تلتقطان كل ما هو جميل من خلال عدسة كاميرته التي يحملها معه في كل

مكان.. اكتسب شهرة واسعة في تصوير لقطات مبهرة ونادرة.. نشر العديد من الصور التي التقطتها عدسته في بعض المجلات الأجنبية فاتسعت شهرته وذاع صيته.. ومن خلال تجواله في شوارع وأزقة الإسكندرية استطاع أن يحصل على صور لكثير من المبان الأثرية والتي تعد تحفًا معمارية بحق.. ومنذ أن بدأت عمليات الهدم لبعض تلك الأبنية وهو يكرس وقته وجهده لصد هذا العدوان التتري الغاشم على تراث المدينة إما من خلال ما يكتبه من منشورات على صفحته الرسمية على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك والتي بلغ عدد متابعيها ومعجبيها إلى ما يقترب من الخمسين ألف.. أو من خلال تلك الندوات التي يقيمها من آن لآخر لعرض الصور التي التقطها سابقًا لبعض المباني التي تم هدمها بالفعل وللبعض الآخر الذي يحاول إنقاذه من ذلك المصير المحتوم..

حكى نديم لسارة كثيرًا عن يحيى ذلك الرجل العاشق للإسكندرية حد الثمالة حتى أصبحت تعرفه عن ظهر إعجاب قبل أن تلتقي به.. تحمست لفكرة لقائه عندما أخبرها نديم بأمر الندوة.. كانت بحاجة إلى الانشغال بقضية مثل هذي التي حدثها عنها نديم لكي تهرب من التفكير في أمر ياسر وعمر.. ولكن نديم ذلك المحب في صمت لم يكن يعرف أنه بدعوته إياها لتلك الندوة يدعوها لحكاية حب جديدة كم تمنى أن يكون هو بطلها الأوحد..

القاعة ممتلئة عن آخرها بالحضور.. والمناصرون لقضية يحيى غريب كثر.. كانت لصوره التي ينشرها عن الإسكندرية مفعول السحر في نفوس كل من يشاهدها وكانت كلماته التي يكتبها في المنشورات التي يلحق بها تلك الصور على صفحته بالغ الأثر في تعريف متابعيه بأهمية

الحفاظ على التاريخ والأصالة في المدينة.. أحس بنشوة غريبة وهو يدلف إلى القاعة ويرى تلك الحشود الذين جاءوا من كل حدب وصوب ليستمعوا إليه ويتضامنوا معه للحفاظ على ما تبقى من جمال في ربوع مدينتهم..

جلس نديم وإلى جواره سارة في الصف الأول.. وقف يحيى أمام جمهوره وبدأهم بالسلام.. رأي نديم فحياه بإيماءة من رأسه.. وقعت عيناه على سارة فأصابته عيناها بسهام كيوبيد الفنية التي لا تخطىء هدفها أبدًا.. ابتسم مرحبًا بادلته الابتسامة بمثلها.. بدأ حديثه بثقة وثبات.. وهو يستعرض بعض الصور الفوتوغرافية على شاشة كبيرة متصلة بجهاز عرض (بروجيكتور).. كانت أولى الصور لفندق وكازينو سان ستيفانو القديم.. ضحك قائلًا..

"بالطبع لست أنا من التقط هذه الصورة فهي قديمة جدًا كما ترون.. ولكني أردت أن أبدأ حديثي عن ذلك الفندق كون ما كان متبقيًا منه هدم في العصر الحديث وتحديدًا في العام ١٩٩٩"

عرض صورة أخرى لفندق سان ستيفانو الحديث.. واستأنف تعليقه على الصورة..

"وتم بناء هذا الفندق بنفس الإسم مكان الفندق القديم.. صحيح أن البناء الجديد أيضًا رائع.. ولكن ليس كل قديم جميل يهدم يستبدل بآخر على نفس القدر من الجمال المعماري.. فالمشكلة الحقيقية تكمن في طمس كل ما تاريخي وأصيل ليحل محله القبح والعشوائية.. وهو تحديدًا ما أحاول

جاهدًا إلى الحد منه.. حتى لا تتحول حياتنا في هذه المدينة الساحرة إلى مأساة أليمة.."

انتقل إلى صورة أخرى لإحدى الفيلات العريقة التي كان التقط صورتها بنفسه.. وإلى جوارها صورة أخرى لركام تلك الفيلا بعد أن تمت إزالتها من الوجود ومحوها من التاريخ.. وصورة ثالثة لبرج سكني شاهق الارتفاع يطل القبح من جميع نوافذه وجدرانه.. واستكمل تعليقه على الصور بنبرة يملؤها الأسى والوجع..

هذا تحديدًا ما يجب علينا جميعًا التصدي له ومقاومته.. وهذا ما أعنيه بكلامي.. استبدال الجمال بالقبح.. الأصالة بالعشوائية.. التاريخ بالعدم.. إنها جريمة مكتملة الأركان في حق مدينتنا الساحرة.. إنهم يتعمدون اغتيالها بدم بارد

واغتيال ذكرياتنا جميعًا بكل همجية.. والآن سنأخذ راحة قصيرة قبل أن نعاود رحلتنا المصورة..

دوت القاعة بالتصفيق.. وتعالت همهمات الحاضرين يعلنون تضامنهم مع يحيى غريب في دفاعه المستميت عن تراث المدينة ضد بربرية البلدوزارات التي تلتهم الأخضر واليابس بوحشية بالغة.. كانت سارة تستمع إلى يحيى وتتابع تعليقات المؤيدين له بانبهار وإعجاب لم يلحظه نديم لانشغاله بالحديث مع بعض الحضور.. اقترب يحيى منها ومد لها يده مصافحًا وهو يبتسم بترحاب وفي عينيه تلوح دعوة للسفر معه إلى المجهول.. أجابته عيناها بالقبول بشرط أن تكون تذكرة السفر ذهاب بلا عودة..

(٢٣)

ما من شيء مُطلق في الحياة.. فكل الأمور نسبية.. بما في ذلك الحقيقة والادعاء.. لا توجد حقائق مطلقة.. فالحقائق أيضًا قد يختبىء بين طياتها بعض من الوهم.. والأوهام نفسها قد يعتريها شيء من الحقيقة.. وتبقى الحقيقة لدينا هي ما نصدقه وما نؤمن به.. وإيمان شخص قد يكون هو عين الكفر بالنسبة لآخر.. في النهاية يبقى لكل امرىء حقائقه الخاصة به التي لا يقبل أن يقوض أحد دعائم إيمانه بها.. ويبقى لكلٍ أيضًا الحق في الرفض أو التسليم بما يختاره له القدر من دور على مسرح الحياة..

صنع لنفسه حقيقة مغايرة حتى يستطيع التقرب من فتاته التي شغفته اهتمامًا.. أصبح شخصين في آن واحد.. في الصباح هو إسماعيل وفي المساء ميلاد.. كان يمضي صباحاته يعمل بجد في الوكالة مع والده الذي ظن في بداية الأمر أن ابنه يكد ويتعب من أجل رقية زوجته المستقبلية.. أما إسماعيل فكان لا يجد بأسًا في تثبيت تلك الفكرة في ذهن أبيه حتى يتجنب أي مشكلات محتملة معه ومع بقية أفراد الأسرة.. كان حريصًا على إخفاء أمر مريم عن الجميع.. في نهاية ساعات العمل كان أبوه يمنحه القليل من النقود تشجيعًا له على الاستمرار في العمل بخلاف راتبه الشهري الذي خصصه له.. وفي المساء كان إسماعيل يهرع إلى لقاء مريم ويرتدي شخصية ميلاد قبل اللقاء.. أتقنها إلى الحد الذي صدقها وأحبها أيضًا.. تمنى لو يبقى ذلك الفتى ميلاد

أبد الدهر حتى يظل بالقرب من مريم التي أصبحت فكرة زواجه منها تلح عليه ليلًا ونهارًا..

لاحظت رقية فتور مشاعر إسماعيل تجاهها.. اشتكت أولًا لأمها ولكن أمها نهرتها.. فلم تجد رقية سوى فاطمة شقيقة إسماعيل لتبثها شكوكها ومر شكواها.. كانت فاطمة أيضًا قد رأت أخاها ذات مساء وهو يتسلل خارجًا من بيت العائلة مرتديًا ملابس بسيطة بدا فيها كأحد الفقراء المشردين الذين تتأفف من مشهدهم في الأسواق.. فأسرت بالأمر لزوجها واتفقا على مراقبة إسماعيل..

على شاطىء البحر كانت مريم تقف في انتظار فتاها ميلاد وقد ارتدت فستانا بلون الثلج فبدت كحورية انشق عنها الموج.. لاح ميلاد في الأفق ممسكًا في إحدى يديه وردة

اقتطفها من إحدى الحدائق.. سبقته إليها لهفته واستقبلته أشواقها.. قبلها على جبينها وغرس الوردة في شعرها الأسود فازدادت جمالًا وبهاءً.. أمسك بيدها وسارا معًا بمحاذاة البحر تجمعهما الألفة ونقاء المشاعر.. كان أمين شاكر زوج فاطمة يراقبهمامن بعيد.. والذي كان يتتبع إسماعيل منذ خروجه من بيت العائلة في ذلك المساء.. ولم ينتبه له الأخير الذي كان تفكيره منشغلًا تمامًا بأمر مريم.. عاد أمين إلى منزله وأخبر فاطمة بأمر تلك الفتاة التي رآها مع إسماعيل.. وتكررت مراقبة أمين لإسماعيل لعدة أيام حتى تأكد له ولفاطمة أنها ذات الفتاة دائمًا.. قررا تتبع الفتاة نفسها لمعرفة مكان سكنها..

ذات صباح غائم ذهبت فاطمة إلى منزل مريم.. كان بؤس حال الحارة التي تسكن بها مريم كفيلًا لأن يجعل فاطمة تكره

الفتاة حتى قبل لقائها.. دقت فاطمة باب منزل مريم بتأفف وضيق.. فتحت لها مريم لتنهرها فاطمة وتوبخها على علاقتها بأخيها إسماعيل.. لم تفهم مريم من يكون إسماعيل الذي تتحدث عنه هذه المأفونة التي زارتهم على غير موعد هذا الصباح.. ذكرت لها فاطمة تفاصيل لقاءاتها بإسماعيل والأماكن التي التقيا فيها الأيام الماضية.. أصاب الوجوم مريم..

- أتعنين ميلاد؟

- لا أعني إسماعيل.. شقيقي الأصغر..

طلبت مريم من فاطمة أن تصف لها ملامح الفتى المقصود بالحديث.. وصفته لها بدقة بالغة.. تسلل الشحوب إلى وجه مريم وكادت تسقط مغشيًا عليها..

- ولكنه أخبرني أن أسمه ميلاد.. أيعني هذا أنه مسلم؟

انتبهت فاطمة لأمر لم تعره اهتمامًا حين ذكرت لها مريم اسم ميلاد في البداية..

- أتعنين أنكِ مسيحية؟

- نعم.. والفتى الذي ألتقيه أخبرني أنه مسيحي أيضًا وإسمه ميلاد..

بهتت فاطمة.. وبدا عليها الحيرة والغضب معًا وصاحت بغيظ في مريم..

- إسمعي أيتها الفتاة اللعينة.. لا أصدقك.. ولكني على علم بأنكِ تلتقين شقيقي إسماعيل كل يوم وأنه يمنحك أيضًا

تلك النقود التي يأخذها من وكالة أبي ويدعي أنه يدخرها لتجهيز بيت الزوجيه الذي سيجمعه قريبًا بخطيبته رقية.. وأحذرك بالتمادي في علاقتك به بعد اليوم وإلا ستكون العواقب وخيمة عليكِ..

انصرفت فاطمة وتركت مريم تموج في بحر من الألم والصدمة.. لم تستطع الفتاة المسكينة الدفاع عن نفسها.. ولم تستوعب فكرة أن فتاها قد خدعها.. قضت ساعات طوال مشتتة الفكر.. ممزقة المشاعر.. لا تصدق أن فتاها العطوف خدعها وأوهمها بمشاعر كاذبة.. لم يكذب فقط فيما يتعلق بإسمه أو هويته ولكنه أخفى عليها أمر خطبته لفتاة أخرى.. سيتزوج إذن ويهجرها.. لن تراه مجددًا.. لن يكون هناك من أجلها.. فما قيمة الحياة بدونه.. وما جدوى العيش إن لم يكن معها..

عادت فاطمة إلى بيت العائلة بالخبر اليقين.. واجهت إسماعيل بكل شيء.. لم يتمكن من الإنكار.. كشفت ستره لأبيه وأمه.. عنفاه ووبخاه.. عجل أبوه بموعد زفافه على رقية.. هرب إسماعيل من المنزل ليذهب إلى مريم ويطمئن عليها.. لم يحتمل إهانات فاطمة لفتاته وحين وصل إلى بيت مريم وجد الجيران يلتفون حول المنزل غير مصدقين لما حدث.. انتحرت الفتاة.. وخلفت وراءها أمًا كفيفة ثكلى.. انهار إسماعيل عندما عرف بالخبر.. ظل يجري على غير هدى.. حتى وصل إلى شاطىء البحر حيث كان يلتقي بها دائمًا.. بكي كما لم يبكِ قط في حياته من قبل.. ولم يعد إلى بيته مرة أخرى منذ ذلك الحين لا أحد يعرف أين ذهب.. أو ما إذا كان لا يزال حيًا..

(٢٤)

ويحدث أن نظن أنه من السهل أن نحكي لغيرنا ما يدور بداخلنا.. حين نقصه على أنفسنا مرة تلو الأخرى.. نظن أن بإمكاننا البوح متى أردنا.. ولكن ليست كل الحكايات تُقال.. ليست جميعها قابلة للتصديق.. قد تريحنا الفضفضة ونزيح عن كاهلنا عبء الكتمان.. ونبقى ندور ندور حائرين في تلك الدائرة المفرغة من التردد.. حتى حين.. كان ذلك الحين عندما قرر أن يفرغ ما في جعبته ويحكي لمليكة كل ما مر به من تجارب غريبة.. باح لها بما لم يبح به حتى لأمه في صغره ومراهقته.. إن مليكة تختلف عن الآخرين.. ربما لأنها تؤمن بوجود تلك القدرات الخفية لدى بعض الناس وتتعامل مع الأمر على أنه حقيقة كونية غير قابلة للشك أو التأويل.. في

لقائهما الأول الذي رتبه له القدر حكى لها عن تلك الأحلام والخيالات التي تراوده من آن لآخر في صحوه ونومه عن ذلك الشخص الذي يدعى دانيال سولومون..

استقبلته مليكة ذلك الصباح بترحاب كعادتها.. جلسا معًا في غرفة المعيشة.. بدا ياسر وكأنه يحمل كل هموم العالم على كتفيه.. تعجبت لحاله..

- ماذا بك؟ لم أعهدك بائسًا لهذا الحد من قبل..

- يبدو أنني أفسدت كل شيء.. حاولت التقرب لسارة بعدة طرق ولكن حماقتي زادتها نفورًا وابتعادًا..

- أي حماقة تقصد؟!.. فحماقاتك كثيرة يا عزيزي..

رمقها ياسر بنظرة معاتبة.. ولكنها استأنفت كلامها بثقة وهدوء..

- أرجو ألا تغضب مني ولكني عاهدت نفسي على أن أصدقك القول دائمًا..

تنهد ياسر بأسى..

- سارة لا تعرف أي شيء عن عالمي الخفي.. أو عن عملي المستتر.. ولكني أخبرتها عن قدرتي على رؤيتها متى أردت ذلك.. حكيت لها عن تمكني من تنشيط العين الثالثة وحاسة الجلاء البصري التي أمتلكها..

زمت مليكة شفتيها وبدا عليها التفكير..

- ظنت أنك تتلصص عليها أليس كذلك؟

- بلى.. وانصرفت عني بعد أن ألقت على مسامعي كلمات لاذعة.. لم تمنحني الفرصة كي أفسر لها الأمر.. أو أبرر لماذا أقدمت على تلك الفعلة معها من الأساس..

- الهاجس القديم لا يزال يطاردك.. تريد حمايتها من عمر كما أراد دانيال حماية سارة من أنطونيو أو ماريو أيًا كان اسمه..

- أخاف عليها أن تلقى نفس مصير سارة على يد هذا المخادع..

صمتت مليكة لبرهة ونظرت إلى ياسر تتفحصه وكأنها تفتش عن شيء ما بداخله.. عن حقيقة غائبة.. عن سر ربما يخفيه عنها..

- أخبرني يا ياسر وأرجو أن تصدقني الإجابة.. هل لك أي علاقة بالحادثة التي تعرض لها عمر؟

فغر ياسر فاه واتسعت عيناه من الدهشة والصدمة معًا.. ثم بدا عليه الغضب والانزعاج..

- لا أنكر أنني أتصرف بحماقة في بعض الأوقات.. وربما بتهور في أوقات أخرى.. وقد أكون مستغلًا للفرص التي تساعدني على تحقيق النجاح والثروة أيضًا.. ولم أخفِ عليكِ كل ما ارتكتبه من أعمال غير مشروعة في بعض الأحيان ولكني لست بمجرم أو قاتل يا مليكة..

بدا على مليكة الإحراج.. ولانت ملامحها وهي تنظر له معتذرة..

- لم أقصد ذلك بالطبع يا عزيزي.. ولكني متعجبة من أمرك.. لماذا تصر على مراقبة سارة إذن وما الذي تخشاه من زيارتها لعمر وهو غائب عن الوعي.. لا يبدو لي أنها تواجه أي خطر على الإطلاق حتى تتعمد مراقبتها بأي شكل بزعم حمايتها..

- ربما ما زلت أعاني من عقدة الماضي الدفينة.. ربما لا يزال دانيال سولومون حيًا بداخلي.. لا أدري يا عزيزتي..

- هراء.. دانيال سولومون مات منذ زمنٍ بعيد.. وأنت لست هو يا ياسر.. أنت شخص مختلف تمامًا عنه وإن كانت ذات الروح التي سكنت جسده هي التي تسكن جسدك أنت

أيضًا الآن.. حاول أن تنسى الأمر برمته لكي تتمكن من العيش في حاضرك بسلام نفسي..

- وماذا عن قلبي الذي لم يدق سوى لسارة؟..

- أي سارة تعني؟ سارة سمعان أم سارة رياض..

- الاثنتان يا مليكة.. أحب سارة رياض بكل جوارحي.. مثلما أحب دانيال بكل كيانه سارة سمعان..

- أنت واهم يا صديقي.. صدقني.. دعني أسألك.. ماذا لو التقيت بفتاة تحمل روح نارسيا.. أتذكرها.. راقصة القصر التي عشقتها في غابر الزمان حين كانت روحك تسكن الكاهن شابكتا..

بدا على ياسر الحيرة والتفكير ونظر إلى مليكة وابتسامة يائسة ترتسم على شفتيه بها شيء من اللؤم..

- أتعرفين يا صديقتي أنني تمنيت في وقت ما لو لم أعرف شيئًا عن ذلك الكاهن.. إن معرفتي عنه ورطتني مع بعض الأشخاص في أعمال غير مشروعة..

ابتسمت مليكة بعدم اقتناع وقد فطنت لما يرمي إليه.. ثم ضحكت بمزاح..

- إن كنت تعني هؤلاء الذين أرشدتهم عن تلك المقبرة الأثرية مقابل عدة ملايين من الدولارات كما أخبرتني.. فالأمر كان بمحض اختيارك وإرادتك يا عزيزي.. فلا تلقي باللوم عليّ لأني من أخبرتك عن حكاية الكاهن شابكتا حين أخضعتك لجلسة قراءة لحيواتك السابقة..

قهقه ياسر من فرط صراحتها.. وأومأ لها برأسه مؤيدًا لكلامها.. ثم قام من على مقعده وهو ينظر في ساعة يده معلنًا موعد انصرافه.. عاتبته على مغادرته قبل موعد الجلسة الروحانية.. فاعتذر لها متعللًا بأن لديه موعد عمل مهم لا يستطيع تأجيله..

قاد سيارته عائدًا إلى الإسكندرية ترافقه ذكريات الكاهن شابكتا ومحملًا بمشاعر متباينة تجاه تلك المرأة المتربعة على عرش الزمن.. مليكة الزاهد.. بقدر ما ينتابه الغيظ والحنق من صراحتها التي تواجه بها أكاذيبه دائمًا.. بقدر ما يجل فيها تلك الصراحة التي يفتقدها في مواجهة نفسه في أحيان كثيرة..

(٢٥)

كان يسير بمفرده على الكورنيش في منطقة محطة الرمل.. تراءت له الذكريات أمام عينيه.. نفضها عن رأسه واستأنف المسير.. عادت تلوح له من جديد.. وكأنها تأبى عليه أن يهنأ بحياته الجديدة.. كل شيء في هذا المكان يذكره بها.. حتى الهواء كأنه ما زال يحمل عطرها.. لم يستطع نسيانها بعد.. لا تزال تحتل كل كيانه.. حين يضم إيفيلين إليه يخالها هي بين ذراعيه.. وصل إلى ميدان سعد زغلول.. تطلع إلى فندق متروبول بنظرات آسفة.. ثم استكمل المسير.. سأل نفسه لماذا يلومها على كذبها عليه إذا كان هو نفسه قد خدعها ولم يخبرها بحقيقته وحقيقة عمله.. ظل يسير شاردًا على غير هدى.. انتشله من شروده صوت امرأة تناديه

بإسمه..صوت يعرفه جيدًا.. التفت ناحية الصوت وصدقت ظنونه.. إنها صوفيا.. صافحته بيد باردة مرتبكة.. ابتسم لها ابتسامة بلا معنى.. رأت خاتم الزواج في إصبعه.. بدا عليها الألم.. ربما كانت لا تزال تتشبث بخيوط أمل واهية.. أن يفيق من وهم تلك الفتاة اليهودية التي أسلمها زمام قلبه.. تلاشت ابتسامته أمام دمعة فرت من عينيها بلا إرادة منها وهي تقول له بصوت مرتعش..

- مبروك..

- شكرًا لكِ عزيزتي صوفيا.. سأرسل تهنئتك إلى إيفيلين..

بدا عليها عدم الفهم.. هزت رأسها متعجبة وهي تردد الإسم الذي قاله لتوه..

- إيفيلن!!.. أليس إسمها سارة سمعان.. أعرف كل شيء يا طوني فلا داعي للمواربة..

نكس رأسه في أسى..

- زوجتي إسمها إيفيلين يا صوفيا وبالمناسبة هي حامل في شهرها الأخير في طفلنا الأول..

- وماذا عن فتاتك اليهودية؟ تخليت عنها بهذه السهولة كما تخليت عني من قبل؟

نظر لها بتعجب واندهاش ممزوجًا بأسف واعتذار..

- أكنتِ تعرفين أنها يهودية؟

- بالتأكيد.. الجميع كان يعرف يا طوني.. والجميع كان متعجبًا كذلك.. لا تخبرني أنك كنت الوحيد الغافل عن الحقيقة..

أغمض عينيه في أسى.. شعر بأنه طُعن مرة أخرى في ذكائه..

- لقد ماتت سارة في حادثٍ منذ فترة..

وجمت صوفيا ولم تدر ما يجب عليها قوله.. صمتت.. وظلت تنظر إلى أنطونيو نظرات حائرة..

- حكاية طويلة ربما قصصتها عليكِ ذات يوم..

– ربما لن نلتقي مرة أخرى يا طوني.. فلم يعد للقائنا أي معنى بعد الآن.. أتمنى لك حياة هانئة..

ركضت مسرعة من أمامه وتركته يصارع أفكاره المتلاحقة.. كيف استطاعت تلك الفتاة الغريرة خداعه إلى هذا الحد.. عبر الشارع واتجه عائدًا إلى منزله.. عليه أن يدفن ذكراها في أعماقه إلى الأبد ولا يعود للتفكير فيها مجددًا.. لن يخذل قلب إيفيلين التي وهبته من الحياة والحب ما لم تهبه امرأة قط..

جاء سيفان للحياة ليمنحه حياة أخرى.. أنجبت له إيفيلن طفلًا رائع الجمال.. أسمياه سيفان على إسم شقيقها الراحل.. كرس أنطونيو كل وقته لعمله وعائلته علّهما ينسياه ما لم يستطع نسيانه..

(٢٦)

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف صباحًا بقليل حين رن هاتفه المحمول.. تحسس سليم (الكومود) المجاور له بيد كسولة والتقط الهاتف ونظر إلى شاشته بعين نصف مغمضة.. كانت الشاشة تضيء برقم أرضي غير مسجل على هاتفه.. أجاب وهو لا يزال يتثاءب.. كانت إحدى الممرضات العاملات بالمستشفى التي يرقد بها عمر سراج.. أبلغته أن عمر أفاق من غيبوبته ويرغب في رؤيته.. هب من فراشه بنشاط.. كانت دينا قد استيقظت بالفعل وتحتسي قهوتها الصباحية في الشرفة.. ذهب مسرعًا إلى الشرفة يذهب لزوجته النبأ السعيد.. ارتديا ملابسهما في عجالة وغادرا المنزل متجهين إلى المستشفى..

قادت غادة سيارتها بأقصى سرعة ممكنة.. وصلت إلى المستشفى وهرعت إلى الغرفة التي يرقد فيها عمر وما إن دلفت إليها حتى ركضت نحوه تعانقه بشوق ولهفة.. ضمها إليه بذراعين واهنين.. تنهدت براحة وهي تستشعر دفء صدره..

– الحمد لله على سلامتك يا عمر..

– سلمكِ الله من كل شر يا حبيبتي..

ابتسمت له بحب..

– يا الله.. كم اشتقت إلى سماع هذه الكلمة منك..

ضحك بملء فيه..

- أخشى أن يصيبك الملل منها إن رددتها كثيرًا على مسامعك..

- لن أملّها أبدًا..

قطع حديثهما طرقًا خافتًا على باب الغرفة.. فتحت الممرضة الباب واستأذنت في الدخول.. تبعها رجلان من رجال المباحث.. قال أحدهم موجهًا حديثه لعمر..

- معذرة أستاذ عمر ولكن علينا أن نأخذ أقوالك لاستكمال المحضر الخاص بالحادثة..

- مجرد حادثة عادية.. ليس لدي ما أقوله بشأنها..

- أبلغنا صديقك سليم أنها قد تكون مدبرة..

- لا أعتقد ذلك.. المكابح كانت بحاجة إلى إصلاح ونسيت أن أفعل لانشغالي بعدة أمور أخرى..

- لا بأس أستاذ عمر.. سنغلق المحضر إذن..

انصرف ضابط المباحث يرافقه كاتب المحضر.. بينما نظرت غادة إلى عمر مستفهمة..

- كدت تموت ولا ترغب في اتهامه بالرغم من أن كل الدلائل تشير إلى أنه هو من دبر الحادث أو على الأقل له علاقة بتدبيره..

- ليس لدي دليل.. كما أنني لم أمت يا حبيبتي.. بالإضافة إلى أن استغراقي في الغيبوبة كل تلك الفترة جعلني أرى وأعرف ما لم أكن أعرفه لولا هذه الحادثة..

- لا أفهم شيئًا..

- أعدكِ أن أفهمك كل شيء وأطلعك على كل التفاصيل ولكن في حينها..

وصل سليم ترافقه دينا.. أسرع سليم إلى عمر يعانقه ويهنئه على سلامته.. بينما اتجهت دينا نحو غادة وصافحتها بحرارة طلب عمر من سليم أن ينهي إجراءات خروجه من المستشفى بأسرع وقت.. كان يرغب في العودة إلى بيته في المعادي للاختلاء بأوراقه والبدء في كتابة روايته الجديدة التي شاهد فصولها كاملة كفيلم سينمائي.. ابتسم لذلك الخاطر الذي ألح عليه منذ اللحظة التي استرد فيها وعيه..

عاد إلى منزله يصحبه سليم ودينا وغادة.. الفيلا التي ورثها عن جده.. اتجه أولًا إلى الحديقة بحث بعينيه في

أرجائها عن كلبه الوفي نوار ولكن لاأثر له.. نظر لسليم مستفهمًا.. نكس سليم رأسه آسفًا..

– مات نوار بعد أسبوع من الحادثة.. تملك الحزن منه.. امتنع عن الطعام والشراب.. حاولنا المستحيل ومعه ولكنه أبى أن يعيش بدون وجودك إلى جانبه..

انهمرت دموع عمر بغزارة.. ضمته غادة إليها مهونة عليه.. واصطحبته إلى داخل الفيلا.. وجد خادمته مهرة بانتظاره ترحب به وقد أعدت كل شيء لاستقباله.. أوصتها غادة بالالتزام بمواعيد الدواء.. أومأت لها مهرة برأسها أن لا تحمل همًا على الإطلاق.. استأذنهم عمر واتجه إلى غرفته طلبًا للراحة.. غادر ثلاثتهم الفيلا.. وتوجهت مهرة إلى المطبخ لتعد الطعام وتستكمل عملها في الفيلا..

دخل عمر غرفة نومه فوجد هاتفه المحمول ملقى على (الكومود) كالجثة الهامدة.. تذكر ذلك اليوم الذي وقعت فيه الحادثة.. كانت آخر مكالمة واردة له من سارة بعد انقطاع دام لعدة أشهر منذ أن قررا إنهاء علاقتهما.. استعاد ما قالته له في تلك المكالمة..

" داهمني إحساس مفاجيء بأن أتصل بك.. ربما لم يعد هناك ما يقال.. ولكني فقط أردت الاطمئنان عليك.."

أخبرها أنه بخير وأن كل شيء على ما يرام.. وأنه أيضًا على وشك خطبة غادة.. لم يبد على صوتها الانزعاج أو الضيق.. هنئته بفتور وكأنه لم يكن يومًا حبيبها.. وأنهت المكالمة.. بعدها غادر الغرفة شاردًا واتجه إلى الحديقة وظل يلعب مع نوار ساعة كاملة حتى حان موعده مع غادة فغادر الفيلا

بسيارته دون أن ينتبه أن نسي هاتفه المحمول بالغرفة.. تنهد وهو ينظر إلى الهاتف.. وابتسم ساخرًا.. البدايات دائمًا منها والنهايات أيضًا إليها.. هز رأسه رافضًا لأفكاره التي هاجمته قبل أن تقتنص لحظاته وتفقده تركيزه في مشروع روايته الجديد.. استلقى على الفراش وأوصل الهاتف بالشاحن وداس على زر التشغيل.. أضاءت شاشة الهاتف وجد عدة مكالمات فائتة ورسالة نصية واحدة.. أثارت فضوله هذه الرسالة الوحيدة.. فتحها.. وجدها رسالة قديمة من سارة أرسلتها في ذلك اليوم بعد محادثتهما الهاتفية بربع ساعة..

"أرجوك أن تنتبه لنفسك.. لا أعرف لماذا أطلب منك ذلك.. ولكنه هاجس يلح عليّ منذ عدة أيام.. كن بخير يا عمر"

تسارعت نبضات قلبه.. كانت تشعر بما سيحدث له.. أي أنها كانت في ذلك الوقت لا تزال تفكر فيه وتحبه.. أخبرته ذات مرة أنها تستطيع أن تشعر بأي خطر يقترب من هؤلاء الذين يحتلون مكانة خاصة في حياتها.. حكت له عن ذلك الهاجس الذي أرقها قبل موت جدها وعرفت من خلاله أنها على وشك فقدانه.. أغمض عينيه محاولًا الهروب من ذكرياتها وذكراها.. لن يدور معها في تلك الدائرة المفرغة مرة أخرى.. يجب أن يحسم هذا الأمر وبسرعة.. سيعلن خطبته إلى غادة الأسبوع المقبل.. ويفرغ قلبه من سارة إلى الأبد.. ضحك هازئًا من نفسه.. وتمتم بصوت خفيض.. (متى كان الحب قراراً أيها المكابر).. وراح بعدها في نوم عميق..

(٢٧)

وفي النوم يرى ما لا يراه في اليقظة.. تطوف روحه في عالمها البرزخي.. وتعود محملة بالحكايات.. لا يدري أحقيقة ما رأى أم أضغاث أحلام.. كل ما بات يعرفه أن من رحم المعاناة تولد المعرفة.. ومن ثنايا المعرفة تنبت الحكمة..

حملت ابنها الرضيع سيفان وتسللت بخفة خارج غرفة النوم تاركة أنطونيو يغط في نومه العميق.. كان الفجر قد بزغ لتوه حين استيقظ الرضيع جائعًا.. اتجهت به إلى غرفة المعيشة.. أطعمته وظلت تهدهده حتى عاد للنوم من جديد.. أطالت النظر إلى وجهه الصغير.. كم يشبه شقيقها في ملامحه.. فتح الرضيع عينيه لثوانٍ ونظر إليها وقد ارتسمت

على شفتيه ابتسامة صغيرة ثم عاد لعالم النوم مرة ثانية.. أحست لوهلة أنه يؤكد لها ما دار في ذهنها عنه هو وشقيقها.. همهمت بنبرة حانية.. سيفان.. أحبك ياصغيري.. وسأبقى أحبك ما حييت.. عدني ألا تتركني وترحل هذه المرة.. ابتسم الرضيع وهو مغمض العينين.. ضمته إليها بقوة وحنان وأغمضت عينيها وكأنها لشقيقها الراحل السلام..

الفقد.. ذلك الإحساس المفزع بالخواء الداخلي.. أن تشعر أن الفراغ يملؤك.. لا شيء سوى الفراغ.. والفقد هو ما يعانيه إسماعيل منذ رحيل مريم.. لم يعد بإمكانة العودة للوراء ولا المضي للأمام.. فقط يقف مكانه يشاهد نفسه الخاوية من كل شيء وأي شيء.. حتى أنه لم يعد قادرًا على الحزن.. الجمود هو ما أصابه.. وهو ما جعله يبحث عن أي شيء يخرجه من هذه الحالة.. أي شيء مهما كان.. كان الوقت

لا يزال مبكرًا جدًا.. تسلل إلى فندق سان ستيفانو.. ذات المكان الذي رآها فيه لأول مرة.. ومن الفندق اتجه إلى الشاطىء الرملي.. القسم المخصص للرجال والذي لم يكن قد امتلأ بعد بنزلاء الفندق.. جلس على الشاطىء بعض الوقت ينظر إلى البحر والحنين يجرفه إلى مريم.. سار بخطوات ثابتة نحو البحر وبدأ ينزلق فيه دون أن يشعر ببرودة الماء.. نظر للسماء يطلب الغفران.. أغمض عينيه وأسلم نفسه للموج.. وما هي إلا سويعات قليلة حتى طفا جسده فوق الماء.. كان النهار قد انتصف وامتلأ الشاطىء برواد الفندق الذين أتوا بحثًا عن المرح تحت ظل شمس الإسكندرية.. صرخ أحدهم وهو يرى ذلك الجسد الطافي على سطح الماء.. تجمع الرجال حول ذلك الصارخ.. نزل رجلان إلى البحر لينتشلوا هذا الجثمان.. كان خبر الغريق قد انتشر في الفندق.. ركض بعض العاملين إلى الشاطىء

ومعهم إيليا.. أخرج الرجلان الغريق ووضعاه على رمال الشاطىء علّ أحد النزلاء يتعرف عليه.. الجميع هز رأسه نافيًا.. عدا إيليا الذي هوى بجوار جثة الغريق واحتضنه وهو يبكي بكاء مريرًا..

استيقظ أنطونيو من نومه فزعًا.. كان يشعر بالاختناق والخوف.. أحس أنه بحاجة إلى استنشاق الهواء الطلق.. ارتدى ملابسه وخرج من الغرفة.. وجد إيفيلين تغفو على أريكة غرفة المعيشة وهي تحتضن الرضيع.. مشى على أطراف أصابعه حتى وصل إلى باب الشقة وغادرها بهدوء.. اتجه إلى الكورنيش.. سار قليلًا بمحاذاة البحر.. ثم توقف وأطال النظر إليه وإلى أمواجه.. منذ طفولته وهو يخشاه ولا يدري سببًا واضحًا لذلك.. يحبه ولكنه يخاف السباحة في مياهه.. لم يفهم أبدًا سر ذلك الخوف المبهم.. سرت رعشة

خفيفة في جسده وهرول مبتعدًا عن المكان.. استأنف سيره ووجد نفسه يتجه إلى فندق سان ستيفانو.. وقف أمام بوابته الخارجية يتأمل المكان بعينيه.. شعر وكأنه أتى هنا من قبل لا يدري متى.. ولكن شيئًا ما يشده إليه .. سار بخطوات بطيئة إلى داخل الفندق ورغبة ملحة بداخله تدفعه إلى الطواف به وكأنه يبحث عن شيء فقد منه داخل أروقته منذ زمن مضى.. ودون تخطيط مسبق وجد نفسه يسأل عن أي وظيفة خالية في الفندق ليلتحق بها ويتمكن من البقاء فيه ما تبقى له من حياة..

(٢٨)

الملل.. هذا الوحش الذي يفتك بكل دقائق يومه.. ويقتات على ثوانيها.. والملل هو ما برر به لنفسه ارتكاب اللامعقول من التصرفات.. فهو ما دفعه إلى أن يخوض تلك التجربة المجنونة وقاده إلى ذلك المصير.. وأوقعه في هذا الفخ الذي لا يعرف بعد كيف السبيل إلى الخروج منه.. كان يمتلك كل شيء.. وربما لم يزل.. ولكن المأزق الذي وضع نفسه فيه أنساه بهجة الأشياء.. وبالرغم من ذلك العناد الذي أتسم به منذ صغره إلا أنه هذه المرة شعر بالسأم من المحاولات المستميتة لإصلاح الوضع برمته.. ليس من طبعه الاستسلام ولكن يبدو أنه استسلم للهزيمة.. هزيمته أمام قلبه..

كان ياسر زهران يجلس في مكتبه بشركته التي تقع في أحد الأبراج الإدارية بمنطقة سموحة حين رن هاتفه المحمول ولم يظهر على شاشته سوى كلمة private number.. دق قلبه بعنف.. تردد لبضع ثوان في الرد على المكالمة.. لم يعد التورط مع هؤلاء القوم أكثر من ذلك.. وبالرغم من أنه لم يكن يرغب في الرد إلا أنه أجاب مرغمًا.. فلن يتركوه لحال سبيله حتى يحصلوا على ما يريدون.. جاءه صوت أحدهم عميقًا أجشًا.. يخبره أن عمر سراج أفاق من غيبوبته وعاد إلى منزله بسلام.. ويعتذر له بأن محاولة التخلص منه لم تفلح ويسأله إن كان يرغب في أن يكرروا المحاولة مرة أخرى.. استمع ياسر إلى المتحدث بذهول وعبارة (التخلص منه) تتردد داخل رأسه كطنين قبيلة من النحل.. أجاب مسرعًا.. لا.. لا.. أنهى المتصل المكالمة دون أن يعقب.. ألقى ياسر الهاتف من يده فزعًا ووضع رأسه الذي كاد ينفجر بين يديه.. لا

يدري كم مر من الوقت وهوعلى تلك الحالة ذاهلًا عن كل شيء حوله.. كان كلام الرجل واضحًا لا يقبل الشك أو التأويل.. حاولوا التخلص من عمر سراج ظنًا منهم أنهم يقدمون له خدمة في مقابل الخدمات الكثيرة التي قدمها لهم من قبل.. عرفوا كل شيء عن حياته وعن علاقاته الاجتماعية قبل أن يطلبوا منه العمل معهم.. وضعوه في تجربة صغيرة في البداية.. أن يعرف لهم مكان تمثال أثري صغير.. عرفه بسهولة.. وأبلغهم.. وحصلوا عليه.. كان ياسر زهران بالنسبة لهم مفتاحًا من مفاتيح الكنوز الخبيئة.. وطدوا علاقتهم به.. وأصبحوا بين الحين والآخر يلجأون إليه كلما استعصى عليهم الوصول إلى مقبرة أثرية..

رفع ياسر رأسه إلى سقف حجرة المكتب وقد بدا وجهه شاحبًا وكأن الدماء هربت منه بلا عودة.. لم يكن يعلم حين

خطا أول خطوات فضوله في ذلك العالم المجهول أنها ستقوده إلى كل هذا الشر المحيط به.. ندم أنه عرف.. وندم أنه تباهى بمعرفته..

تذكر ذلك اليوم الذي كان يجلس فيه مع بعض معارفه الذين تربطه بهم علاقات عمل واستطاع على سبيل التفاخر بقدراته ما وراء الحسية أن يقرأ رسالة نصية وردت على هاتف أحدهم دون أن يطالع شاشة الهاتف بعينيه.. يومها أصاب الجميع الدهشة والتعجب.. استرسل في الحديث عن العين الثالثة وعن تمكنه من تنطشيها والرؤية بها دون بصر.. تفاعل الجميع مع الموضوع وأدلى كل منهم بدلوه.. ولكي يتفوق عليهم في نهاية النقاش حكى لهم عن الكاهن شابكتا.. البعض لم يصدقه واعتبر الحكاية درب من دروب الخيال أو الخبل.. والبعض الآخر استمع إليها من قبيل

الترفيه أو التسلية.. واحد فقط هومن اهتم بكل تفاصيلها.. لم يعرف ياسر حتى الآن من هو على وجه التحديد ولكن هذا الشخص هو من قاد هؤلاء إليه.. وقاده نحو هاوية سحيقة لا يستطيع الخروج منها.. ابتسم لنفسه هازئًا..

أليس الانتقام من عمر هو ما أردت يا ياسر؟ لماذا تفتعل الدهشة.. خدمة مقابل خدمة.. صحيح أنك لم تطلب منهم تلك الخدمة بشكل مباشر ولكنك ألمحت لهم بكراهيتك له.. فلتعتبرها مكافأة نهاية خدمتهم.. يا لك من أحمق.. أتظن أنهم سينسون أمرك بهذه السهولة؟.. لا تحاول أن تتظاهر بالانزعاج لما أصاب عمر.. منذ قديم الأزل وأنت تتمنى أن تقتص منه.. وها هم أصدقاؤك فعلوا عوضًا عنك.. فلتنس ما حدث.. فلتنس كل شيء.. ربما بات عليك أن تنسى أيضًا كل ما تمتلكه من قدرات روحانية وأن تعيش مثلما يعيش أي

شخص عادي.. لقد أضعت حياتك في أوهام لم تجن منها سوى الخسارات والخيبات المتلاحقة..

غادر مكتبه وانطلق بسيارته مغادرًا الإسكندرية ومتجهًا إلى القاهرة عائدًا مرة أخرى إلى مليكة علها تساعده على الخلاص من محنته..

(٢٩)

أنا الكاهن شابكتا – والخلود – ذلك السر الأعظم الذي كان دائمًا بُغيتي.. ولستُ وحدي من أنشده.. فمعظمنا سعى إليه بل وعمل على تحقيقه بما توصلنا له من علوم ومعارف لم يسبقنا إليها أحد من العالمين.. كنت ذلك الصبي النابغة منذ نعومة أظفاري وكنت محط أنظار الجميع وموضع تباهي أبي وزهوه أمام أقرانه.. أودعني الإله وسامةً وذكاءً.. كنت ذلك الفتى اليافع الذي يبهر النساء والفتيات بوسامته وحديثه أينما حل.. ولكن ذكائي كان يقف حدًا ما بيني وبين انزلاقي في مغامرة ليست محسوبة العواقب.. كان شيئًا ما بداخلي أكبر من الانغماس في ملذات الحياة الفانية وخاصة بعد تلك

التجربة التي مررت بها منذ بضعة أشهر والتي جعلتني أكثر إصرارًا على التفرغ للعلم والمعبد..

أكبر الأبناء أنا في أسرة مكونة من خمسة أفراد.. أبي واحد من كبار الكهنة وأمي ربة منزل.. أخي الأوسط يخدم في واحد من معابد طيبة.. أما أختي الصغرى فأمي تعدها لتكون زوجة لواحد من الأمراء الذين يتوافدون على المعبد الذي يعمل به أبي لاستشارته في كل أمور الحياة.. لم أكن قد التحقت بالمعبد بعد حين رأيتها.. كان مساءً ليس كسائر المساءات التي تسبقه في عمري قبل أن يطل وجهها على أيامي كالقمر المنير.. كنتُ عائدًا إلى دارنا بعد انتهائي من تلقي بعض الدروس في المدرسة الملحقة بالمعبد الذي يعمل به أبي.. كنت أدرس علوم الطب آنذاك ولكني كنتُ مهتمًا أيضا بعلم اللاهوت.. ذلك العلم الذي كان مقصورًا على

صفوة الكهنة في المعبد والذي كان أبي أحدهم.. اختار لي أبي دراسة الطب لأصبح الطبيب الخاص للقصر ولبري الشديد به لم أخذله.. اجتهدت في دراستي ونبغت فيها وبدأت ممارسة الطب الذي برعت فيه بمرور الوقت..

في ذلك المساء البعيد القريب.. كنت أسير بمفردي أتأمل السماء ونجومها التي طالما أرشدتني طريق عودتي.. تعثرت قدمي بحصاة صغيرة فخفضت بصري لأزيحها من دربي فإذا بي أقف ذاهلًا أمام ذلك الحسن الخلاب الذي أشرق كشمس طيبة البهية.. توقفت عن المسير وأنا أتطلع إليها وهي تنحني متأوهة وتفترش الأرض ممسكة بقدمها الرقيق.. أسرعت إليها حين لاح لي الألم باديًا على وجهها الجميل.. ظننت الأمر للوهلة الأولى أنه مجرد التواء في قدمها ولكن هالني ما رأيت.. خيطًا من الدماء ينساب بغزارة بسبب ارتطام قدمها

بالأحجار.. وعلى مقربة منها كان لا يزال ذلك العقرب يقف منتصبًا منتشيًا بقبلته المميتة التي منحها إياها بغتة.. التقطت حجرًا كبيرًا وألقمته لذلك الشرير الذي أذاها فأرداه قتيلًا في الحال.. نظرت إليّ بامتنان بعينيها الواهنتين قبل أن تغلقهما وتغيب عن الوعي.. حملتها بين ذراعي وركضت بها عائدًا إلى المعبد من جديد لإسعافها.. مكثت ساعات طوال بجوارها حتى أفاقت.. فتحت عينيها ونظرت حولها وابتسمت وهي تتنهد وشكرتني على إنقاذ حياتها.. لم أقو على الحديث من فرط انبهاري بجمالها الخلاب.. ولكني بعد برهة سألتها عمن تكون.. أجابتني في خفر إنها إحدى راقصات القصر وإسمها نارسيا.. كانت حقًا مضيئة كالنار ومتوهجة كالشمس حتى في أكثر الليال حلكة.. ران صمتٌ ثقيلٌ على لساني.. ألجمني ما عرفت.. ولا أدري لماذا أهمني ما قالته لتوها وما سبب هذه الحيرة التي انتابتني.. وكيف كان لها

ذلك الأثر العميق في نفسي منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناي عليها.. أهو الحب؟!.. ومالي أنا بالحب؟.. لم أكن أحسب له حسابًا على الإطلاق حتى تلك الليلة.. ولم أبح لها بما دار بين عقلي وقلبي من جدال أرهقني.. فآثرت الصمت والانشغال بتركيب الدواء لها.. تحاشيت النظر إليها.. أما هي فكانت منشغلة عني وعن المكان بتحسس قدمها المصاب.. فإصابة قدمها تعني اضطرارها للتوقف عن العمل ولو لبعض الوقت.. حين أضاء هذا الخاطر في بالي فجأة دون أن تلحظني هي.. ربما كانت تلك هي فرصتي للتقرب منها بمنأى عن القصر.. انتهيت من تركيب الدواء ومددت لها يدي به.. تناولته ولم تزل تلك النظرة الممتنة معلقة بعينيها تجاهي.. ساعدتها لكي تترك الفراش الصغير التي كانت ممدة عليه وأنا أسعفها واستندت على كتفي وهي تسير رافعة قدمها المصابة عن الأرض حتى وصلنا إلى باب غرفتي

بالمعبد.. ابتعدت عني بضع خطوات وحاولت أن تسير بمفردها ولكنها كادت تسقط من جديد.. هرعت نحوها بلا وعي وحملتها من جديد بين ذراعي.. تسلل عطرها إلى أعصابي.. أثارني وحرض رجولتي عليّ.. قربت وجهها من وجهي فلفحتني نيران أنوثتها المتقدة.. والتقت شفتانا في قبلة طويلة.. ولم أدر حينها هل كانت قبلة الحياة أم الموت.. قبلة الخلود أم الفناء.. سلبت فؤادي وشغلت عقلي.. فلم يعد يمر نهار دون أن ألتقيها خلسة بعيدًا عن أعين المتلصصين في القصر وعن المتربصين في المعبد.. ولم يعد يمضي ليل إلا وأنا منشغل بها.. ولكني بالرغم من ذلك لم أهمل دروسي وعلومي.. حتى اختفت فجأة..

كنا على موعد للقاء كعادتنا.. انتظرتها طويلًا ولكنها لم تأتِ وهي التي لم تخلف موعدًا معي قط من قبل.. انتابني

قلق بالغ لم أدر مصدره أو سببه ولكنني أحسست بأن هناك خطبًا جَلَلاً منعها عني.. أمضيت أيامًا لا أعرف للنوم مذاقًا.. تقصيت أخبارها من بعض خدم القصر وعلمت ما تمنيت لو أني ما علمته قط..

(٣٠)

خُلق وخُلقت معه المعرفة.. ولكنه لم يهتدِ.. بل وجد نفسه يدور في متاهة أحلام من سبقوه منذ أن بدأ يعي هذه الحياة.. أنقمة أم نعمة أن يختارنا القدر أن نعيش أكثر من حياة.. أن نعرف ما لا يعرفه الآخرون.. أن تثقل الحياة كاهلنا بما تنوء سنوات عمرنا عن حمله.. لكي ننعم بالسكينة علينا أن نعرف نفسنا أولًا.. علينا أن نتقبلها كما هي.. أن نفهمها.. وأن نؤمن بما نريد تحقيقه لنحققه ونحقق ذاتنا من خلاله.. منذ أن تفتحت عيناه على الحياة أدرك أن السر يكمن في الحلم.. وأن الجميع خُلق وبإمكانه أن يحلم.. وأن الأحلام خُلقت لكي تتحقق في النهاية.. لا يهم متى.. ولا كيف.. المهم أنها ستتجسد يومًا واقعًا ملموسًا.. كما السحاب يتراءى للناظر

خيالات شتى ثم لا يلبث أن يتوارى لتسطع الشمس وتضيء طريق العارفين..

المعرفة ليست هي الخطيئة.. ولكن خطيئته تكمن في الطريق الذي اختاره بكامل إرادته.. ظل طوال حياته يسعى لنيل شيء لم يكن له من البداية.. قلب امرأة لم تحبه.. أهدر سنوات عمره يركض خلف سرابها.. والآن يحاول أن يفلت من أسر ذلك الماضي اللعين..

بعد لقائه الثاني بمليكة الزاهد والذي قرأت له فيه إحدى حيواته السابقة وأخبرته عن قصته حين كانت روحه تعيش في جسد الكاهن شابكتا.. بدأ يمارس بنفسه رياضة اليوجا والتأمل لمعرفة المزيد عن الحيوات التي عاشتها روحه فيما مضى.. كان قد سمع من بعض معارفه وموظفيه عن رواية

متروبول تلك الرواية التي تتحدث عن تناسخ الأرواح والتي أحدثت ضجة هائلة بعد صدروها لما أعلنه كاتبها عن أنها مستوحاة من أحداث عاشها هو بنفسه.. أثارت في نفسه الفضول لقراءتها.. وهاله ما قرأ.. وكلما توغل في صفحاتها تأكدت ظنونه أكثر.. تلك التفاصيل التي تعج بها الرواية عن حياة دانيال سولومون.. لقد رآها من قبل.. تحفظها ذاكرة روحه عن ظهر معرفة..

ليس هو الوحيد إذن الذي عادت روحه من جديد لتعيش في جسد آخر في هذه الحياة.. أعادته الرواية إلى قصة الحب القديمة التي عاشها دانيال سولومون مع سارة سمعان.. قرر أن يبحث عن الكاتب عمر سراج ليصل من خلاله إلى سارة رياض التي كان قد رأى صورتها في إحدى صفحات الجرائد التي نشرت أخبارًا عن الرواية وأبطالها.. ولاحظ الشبه

الكبير بينها وبين سارة سمعان التي لا تزال ذاكرة روحه تحتفظ بملامحها.. ظل أيامًا يفكر كيف يمكنه لقاءها.. حتى قادته المصادفة إليها ذات نهار.. رآها بصحبة جاره القديم نديم نصار.. عرفها من فوره ولكنها لم تعرفه.. حاول التقرب منها بشتى السبل ولكنها كانت دائمة الصد له.. مرة أخرى يقف بينه وبينها ذلك الرجل.. غريم دانيال سولومون فيما مضى وغريمه في الحياة الراهنة.. حكى لصديقته مليكة.. حاولت أن تثنيه عن الاستمرار في محاولاته الفاشلة تلك ولكنه لم يستمع إليها.. ظلت رغبته في الانتقام من عمر تكبر بداخله يومًا بعد يوم حتى نفذها له هؤلاء القوم الذين لا يتورعون عن ارتكاب أي جريمة مهما كانت في سبيل تحيقيق أهدافهم.. يا لها من مكافأة قدموها له.. ويا له من شقي بائس..

كانت الشمس قد قاربت على الرحيل عندما وصل إلى مشارف القاهرة.. عدل عن قراره في الذهاب إلى مليكة وبدلًا من ذلك قرر التوجه إلى الشاليه الذي يمتلكه في العين السخنة.. كان بحاجة إلى الاختلاء بنفسه لإعادة ترتيب أوراق حياته من جديد.. ربما استطاع أن ينجو بنفسه من براثن هذه المتاهة التي يدور فيها منذ أمد بعيد ولم يزل..

(٣١)

ماتت حبيبتي.. قُتلت غدرًا.. لم تكن هي المعنية بتلك الكأس المسمومة التي تجرعتها ليلة مقتلها.. وإنما إحدى الأميرات.. شربت نارسيا الكأس مصادفة بدلًا من الأميرة.. وسقطت صريعة في الحال.. انقلب القصر رأسًا على عقب ولكن الجميع تكتم الأمر حتى يصلوا للآثم الذي أرتكب هذا الجرم الشنيع.. لم تكن نارسيا راقصة في القصر فحسب ولكنها كانت الوصيفة المقربة للأميرة أماليا.. الأميرة التي غرقت في عشقي حتى أذنيها دون أن أدري شيئًا عن الأمر.. والتي لم أعرها انتباهًا حتى بعدما علمت به.. فقلبي كان قد توقف عن النبض منذ رحيل نارسيا التي

دفنت دون طقوس أو مراسم كتلك التي نعدها للملوك والأمراء والكهنة..

بعد تلك الحادثة بأسابيع قليلة استدعاني وزير الملك ذات صباح للقصر لمرض الأميرة.. ذهبت وفي نفسي رهبة خفية فهناك في هذا المكان كانت تعيش حبيبتي نارسيا.. أتراها تنتظرني بشغف كما كانت تفعل حين كنا نلتقي قرب المعبد.. أم تراها رحلت إلى مكان آخر باحثة عن إجابة لذلك السؤال المعلق بقلبي.. لماذا هي من دون جميع راقصات القصر.. ولم اختارها ذلك الموت اللعين دون غيرها ليحرمني من قربها ووصلها.. كنتُ مهمومًا وبدا ذلك واضحًا على ملامحي.. ولكني عللت تجهمي للحاشية بجديتي في العمل.. دخلت مخدع الأميرة تصحبني ثلاث وصيفات.. كانت المرة الأولى التي أراها فيها.. كانت جميلة ولكنها لم تكن أجمل من

نارسيا.. كانت لبقة ولكن حديثها لم يكن ساحرًا كحديث فاتنتي نارسيا.. ولم تكن مريضة كما تزعم.. كانت تدعي المرض.. وعجبت من أمرها.. ما الذي يدفع أميرة مثلها لمثل ذاك الادعاء.. كانت كل الأمور مبهمة بالنسبة لي في ذلك الوقت.. ولكني بمرور الوقت أدركت كل شيء.. وفهمت الحقيقة وليتني مافهمتها أبدًا..

أخبرتني الوصيفة كاريسا بالحكاية كلها.. كانت تبكي وهي تقص عليّ تفاصيل الفاجعة.. رأتني الأميرة أماليا ذات مساء وأنا أودع نارسيا أمام باب القصر.. شغفتها حبًا.. راقبت نارسيا وراقبتني وأضمرت شرًا لحبيبتي لتتخلص منها فيخلو لها وجه قلبي.. هكذا ظنت اللعينة.. اتفقت مع إحدى الوصيفات التي لم تكن على وفاق مع نارسيا بأن تضع سمًا زعافًا في شراب الأميرة وأن تدعي أن نارسيا هي من

وضعته للأميرة.. فإن رفضت نارسيا تجرع الشراب حُكم عليها بالموت لارتكابها هذا الجرم الفادح وإن قبلت تجرعه لتبرئة ساحتها من التآمر على الأميرة ماتت هي بالسم.. وفي الحالتين يتحقق حلم أماليا بالتخلص منها.. كانت كاريسا تنتحب من الندم والخوف وهي تروي لي ماحدث لحبيبتي التي تآمرت الأميرة عليها للإيقاع بي.. طمأنتها بأني لن أفشي سرها ولن تعلم أماليا بأني عرفت كل شيء.. ولكني أضمرت أمرًا في نفسي.. لم أطلع أحدًا عليه ولكني كنت على يقين أن روح نارسيا تعلمه..

تكررت زياراتي للقصر بحجة الاطمئنان على صحة الأميرة التي تعلقت بي إلى حد الجنون.. أصبحت كالدمية بين يديي أحرك خيوطها كما شئت وقتما شئت.. ربما خطرت ببالي فكرة أن أضع لها السم في شرابها ذات مرة لتتجرع الألم

الذي أذاقته لحبيبتي نارسيا ولكني عدلت عن تلك الفكرة الحمقاء.. ولم تكن حماقة الفكرة تكمن في قتل تلك الشيطانة وإنما في قتلها سريعًا.. أردت أن أذيقها العذاب أضعافًا مضاعفة.. رغبت في أن أراها تتوجع وتتألم كل يوم آلاف المرات.. وكان صدي لها بعد تعلقها الجنوني بي هو كأس عذابها الذي جرعته لها على مهل وأنا أتلذذ برؤيتها وهي تتذلل تحت أقدامي أن أعود لسابق عهدي معها من الود الذي لا تدري هي أنه لم يكن له مكانًا قط لها في قلبي.. هجرتها بعدما تمكن حبي من شغاف قلبها.. وقاطعتها بعدما أحكمت قبضة اللهفة حول أيامها.. وسرعان ما نحلت وذبلت وشحب لونها ومرضت مرضًا عضالًا.. كنت وحدي من يملك دواءها وكنت وحدي من أعرف سر دائها ولكني كنت وحدي أيضًا الذي من المحال أن يغفر لها جريمتها التي ارتكبتها في حق نارسيا وحق قلبي المتيم بها..

وماتت الأميرة.. وأشفيت غليلي وغليل حبيبتي المغدورة.. وتركت دراسة الطب بحجة أني فشلت في شفاء أماليا.. واتجهت إلى دراسة اللاهوت.. بحثًا عن إجابة للسؤال الذي لهثت خلفه منذ رحيل نارسيا علّني أجد سبيلًا يصل بي إلى حيث هي..

اعتزلت النساء وأصبحت واحدًا من أكثر الكهنة النجميين علمًا ودراية.. بلغت من العلم مبلغه ومن العمر أيضًا.. شاركت الكهنة العظام في إخفاء كنوز الملوك الراحلين عن أعين اللصوص.. كنا نحصن قبورهم بتعاويذ لا يستطيع إنس أو جان فك طلاسمها.. كنا وحدنا من نمتلك المعرفة والعلم..

اتسعت شهرتي وذاع صيتي.. وأصبحت داري مقصدًا للصفوة من قومي.. امتلكت سطوة ونفوذًا ومالًا وفيرًا.. ولكني لم أنس نارسيا ولم أتوقف عن حبها لحظة واحدة.. كنت أسعى للقائها في كل يوم من أيام عمري الطويل.. حتى حان وقت رحيلي.. أعلم جيدًا أنها ليست نهايتي.. بل هي ليست النهاية على الإطلاق.. أؤمن بأن الموت ما هو إلا مَعبَرًا لحياة جديدة.. خالدة.. لذلك كان اهتمامنا بطقوس الموت كاهتمامنا بكل تفاصيل الحياة.. ممدًا على فراشي الذي يتوسط غرفتي بالمعبد.. يلتف حولي عددًا من الكهنة الذين كنت حتى لحظات أشاركهم الطقوس اليومية.. أوصيتهم أن يعدوني إعدادًا عظيمًا يليق برحلتي إلى عالم الخلود.. كنت بالطبع أعلم كل ما سيقومون به من أجل إعدادي للذهاب إلى العالم الآخر.. سأغمض عيني وتغادر روحي هذا الجسد الذي سيتم تحنيطه من أجل عودتي إليه مرة أخرى كما هو

متبع في عقيدتنا.. عقيدة الخلود.. سيحملون جسدي بعد تحنيطه إلى الشاطىء الشرقي لنهرنا العظيم.. النيل.. وسيضعون جسدي في التابوت المخصص لي مع بعض مقتنياتي الثمينة.. أوصيتهم أن يضعوا معها عقدًا فيروزي اللون كنت أحتفظ به ولا أحد منهم يعلم أنه كان ملكًا في يوم ما لحبيبتي نارسيا.. إنهم يبدأون الآن في حرق البخور تمهيدًا لخروج روحي وصعودها إلى السماء لأمثل أمام اثنين وأربعين قاضيًا سيقومون بمحاسبتي عن كل ما فعلته في هذه الحياة.. سيسألونني بالطبع عما فعلته من خير ومن شر أيضًا.. ولن أستطيع الكذب عليهم أو إخفاء أي شيء.. لم يكن رحيلي هو ما يشغل بالي في تلك اللحظة المهيبة بقدر ما كنت أفكر في إجابة سؤال واحد بعينه.. انتقامي من أماليا هل كان خيرًا أم شرًا.. كيف ستكون إجابتي على هذا السؤال تحديدًا.. إنني لم أحقق بفعلتي تلك سوى العدالة لروحك يا

حبيبتي.. هل سيتفهمون دوافعي؟.. وهل سيغفرون لي؟.. أعلم أنه لم يعد لدي متسع من الوقت لكي أعترف أمام هذا الجمع من الكهنة بما فعلته ولكن ما جدوى اعترافي الآن وأنا على وشك الرحيل.. أتعجل رحيلي لكي أتخلص من عبء خطيئتي الجاثم على صدري ومن أجل أن ألتقيكِ مرة أخرى في العالم الآخر لأغتسل في مياه عيونك الصافية وأعود نقيًا من جديد.. ربما استطعت أن أتخلص من لعنتي.. لعنة المعرفة التي أصابتني ولم تزل.. أريد التطهر في رحابك مرة أخرى من كل أدران نفسي ومن كل ما علق بها من دنس الحياة بعدما خلت منكِ..

أسمع أصداء الموسيقى الجنائزية وهي تبتعد شيئًا فشيئًا وأبدأ في صعود هذا السلم إلى السماء حيث تبدأ محاكمتي.. حيث بداية الرحلة إلى عالم الخلود..

(٣٢)

عائدٌ هو من الموت أو ربما من الحياة.. ليبدأ في سرد حكايته الطويلة.. والتي لا يعرف لها بداية على وجه اليقين ولا نهاية أيضًا.. والحقيقة المؤكدة أنها بلا بداية محددة ولا يستطيع أن يجزم بنهايتها كذلك.. هي مجرد فصول متتالية.. لا يعنيه فيها الترتيب الزمني كبقية الحكايات.. ولكن ما يهمه هو ما توصل إليه من حكمة أحداثها..

يجلس أمام ذكرياته أو هي التي تتوسد الماضي أمام عينيه وكأنها طفلٌ مدللٌ يأبى النوم دون أن يحكي له حكايتها مرة أخرى.. هي التي ارتحل من زمان لآخر بحثًا عنها علّه يجدها من جديد تختبىء بين طيات أسطورة لم يحط رحاله على

ضفافها بعد.. ساعات طوال مرت عليه وهو يجلس على ذلك المقعد الخشبي أمام الشاليه.. يتأمل صفحة ماء البحر وانعكاس ضوء القمر عليها.. يُخيل إليه أنه يرى بعض الوجوه التي مرت بحياته كلما مرت نسمة عابرة وشقت عباب الضوء المتناثر على سطح المياه.. تتلاشى هذه الوجوه ويبقى وجه واحد فقط لا يستطيع نسيانه أو بالأحرى لا يستطيع التخلص منه.. وجه سارة.. يشعل سيجارة تلو الأخرى ولا يدري هل يحرق تبغ سجائره أم أن القلق هو الذي يحرق أعصابه وهو ينتظر هذا المجهول القادم من عالم لا يعرف عنه أي شيء بعد.. ألقى نظرة خاطفة على نسخة رواية متروبول التي من يوم أن ابتاعها وهو يحتفظ بها في هذا الشاليه.. حملها معه إلى الشاطىء حيث يجلس.. ظل يحدق فيها للحظات وكأنه ممسوس بجنية تسكن دفتيها.. أمسكها وأخذ يمزق صفحاتها في هدوء غريب.. سار بالأوراق

الممزقة إلى البحر وألقاها فيه وكأنه يمحو ذلك التاريخ المدون بها.. ويشعل النسيان في ذاكرته التي تمنى لو أنه يفقدها إلى الأبد..

عاد إلى الشاليه خاويًا من تلك التفاصيل التي خطها عمر في روايته.. ولكن ثمة تفاصيل أخرى لم تمح من وجدانه.. تفاصيل سددت طعناتها المتتالية إلى قلبه وأحلامه معًا.. اتجه إلى الحمام ووقف في المغطس (البانيو) بملابسه وفتح صنبور المياه الباردة تاركًا إياها تنساب على رأسه علّها تغسلها من أدران تلك الأفكار التي تطارده.. ترك العنان لدموعه لأول مرة منذ أن ودع طور طفولته.. أراحه البكاء قليلًا.. طمأنه أنه لا يزال يحتفظ بشيء من إنسانيته..

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل.. بدل ملابسه وغادر الحمام متجهًا إلى غرفة نومه.. أدار أسطوانة مدمجة لموسيقى شوبان.. أمسك هاتفه المحمول وقرر الاعتراف لها بكل شيء ليزيح عن كاهله ذلك العبء الثقيل الذي يحمله منذ سنوات طوال.. وبدأ يكتب لها رسالة نصية طويلة على تطبيق whatsapp..

"عزيزتي سارة.. أرجو منك أن تسامحيني على كل ما بدر مني وتسبب لكِ في ضيق أو إزعاج.. لم أقصد أبدًا إغضابك في أي وقت.. ربما لست بالرجل المثالي الذي أدعيه.. وأعترف أنني بارع في الادعاء في كل شيء عدا مشاعري تجاهك.. أحببتك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها وأنتِ تصطحبين أختي كلير إلى متجر الأقمشة الذي يمتلكه والدنا.. منيت نفسي بالزواج منك ليس طمعًا في ثروة أبيكِ

موسى سمعان أو نفوذه كما كان يظن.. ولكن لعشقي لكِ الذي لم أستطع أن أتخلص منه حتى بعد أن هجرتني من أجل ذلك الجاسوس الإيطالي أنطونيو جيانو أو كما كان يطلق على نفس إسم ماريو.. كنت أراقبك دائمًا من أجل حمايتك منه.. ولكنني بالرغم من ذلك لم أتمكن من إنقاذك من براثنه.. المحب لكِ دائمًا دانيال سولومون"

ضغط زر الإرسال.. ثم بدأ في كتابة رسالة أخرى..

"عزيزتي سارة.. ربما استطاع عمر سراج في روايته متروبول أن يروى تفاصيل كثيرة عن تلك الحياة التي عاشها ثلاثتنا في الماضي ولكنه بالطبع لم يذكر كل شيء.. فهناك فصول في الحكاية لا يعرفها كما لا تدرين أنتِ عنها شيئًا.. وما رسالتي السابقة إلا جزء من تلك التفاصيل التي لم

يمنحني القدر فرصة كي أرويها لكِ.. نعم يا عزيزتي.. أنا هو.. ذلك الفتى دانيال سولومون الذي كان على استعداد لفعل أي شيء من أجل إرضائك ومن أجل أن يفوز بقلبك.. والذي عاد من جديد يحاول استجداء مشاعرك ولكن دون جدوى.. ربما لم يُخلق قلبك لكي ينبض بحبي.. ولكن قلبي أنا لم يتوقف عن النبض من أجلكِ.. أحببتك في هذه الحياة أيضًا.. وكأن حبك هو لعنتي الأبدية.. ياسر زهران"

أرسل لها رسالته الثانية ثم أغلق هاتفه المحمول واغمض عينيه محاولًا الاستغراق في النوم..

(٣٣)

لم تنمح تلك اللحظة أبدًا من ذاكرة "دانيال".. ولم يستطع أن يتخطى ألمها بعد.. كيف قابلت اشتياقه بفتورٍ أصاب قلبه في مقتل.. وكيف أخبرته بعباراتٍ ثلجية بوجود ذلك الآخر في حياتها..

كان ينتظر خروجها من معبد "يعقوب ساسون" بحي جليم.. ليدعوها إلى الغذاء ولكنها حين رأته قابلته بفتور لم يعتده منها وصدته عنها بكلمات مسمومة.. اعترفت له بحبها لرجل آخر.. هكذا ببساطة.. غير عابئة بتلك المشاعر التي جمعت بينهما ذات يوم.. وغير مبالية بأحلامه التي دهستها بأقدامها العابثة..

ألقت كلماتها كقذيفة مدمرة.. ثم فرت من أمامه راكضة قبل أن يستفيق من صدمته.. وألقته هو ونفسه في هوة سحيقة من الغضب والرغبة في الانتقام لرجولته التي طعنتها بسكين غدرها.. قرر أن يتبعها في ذلك اليوم حتى يعرف من ذلك الوغد الذي حطم أحلامه وسرق منه فتاته..

هام على وجهه في ذلك اليوم في شوارع الإسكندرية.. عاوده التفكير مرة أخرى في مغادرة المدينة.. ولكنه تذكر أن أباه إيزاك سولومون لن يسمح له بذلك.. يخشى عليه السفر في وقت الحرب كما أخبره.. ولكن الحرب دائرة بالفعل في مدينته.. الجميع يعيشون في حالة من الهلع والخوف المستمر.. الحرب تحصد الأرواح في كل مكان يا أبي.. أتخشى علي من السفر ولا تخشى علينا جميعًا من البقاء ها هنا.. ألا تفزعك تلك الغارات الجوية لقوات المحور التي تضرب

المدينة بالغدو والآصال.. ظل سائرًا على غير هديٍ.. قادته قدماه إلى مدرسة كلية فيكتوريا التي تحولت إلى مستشفى للجيش البريطاني.. فابتسم ساخرًا وكأنه يوجه ابتسامته تلك لأبيه.. الحرب تقلب كل شيء رأسًا على عقب يا إيزاك.. تحولت المدرسة لمستشفى وانتقل طلابها إلى فندق سان ستيفانو.. هل يجرؤ أحد أن يعترض على قوانين الحرب؟.. لم تستطع إدارة الفندق أن تعترض على تحويل حجراته إلى قاعات دراسية لطلاب المدرسة بعد أن أصدر محافظ الإسكندرية قرارًا رسميًا بذلك إرضاء للسلطات البريطانية.. يبدو أننا جميعًا أصبحنا مجبرين على الإذعان لأمور كثيرة تحت سماء هذه المدينة.. أمور لم نخترها ولا نقبلها ولكننا مضطرون للتعايش معها كما هي.. اللعنة على الحرب.. واللعنة على سارة سمعان.. اللعنة على كل شيء.. لم أعد أرغب سوى في الرحيل..

استأنف المسير حتى كلت قدماه.. قرر الذهاب إلى المقهى الذي يلتقي فيه صديقه عزرا.. ولكنه تراجع عن قراره فلم يكن في حال يسمح بأن يتحمل ثرثرته التي يضطر أحيانًا إلى تحملها مرغمًا.. ابتسم ثانية بمرارة.. يبدو أنه مرغم حتى على مرافقة البعض.. رفع عينيه إلى السماء بآلاف الأسئلة التي لا يجد لها إجابات شافية.. أي ذنب اقترفه ليأتي إلى هذه الحياة فقيرًا معدمًا.. لماذا كُتب عليه أن يحب تلك الفتاة التي لا تعير لمشاعره أي اهتمام.. ما الذي يتحتم عليه فعله ليرأب صدع كرامته التي تهشمت بمطرقة صلفها.. أراد الصراخ ولكنه لم يستطع.. هرب صوته كما هربت منه دقات قلبه تتبعها على طريق اللاعودة.

(٣٤)

استيقظت سارة رياض ذلك الصباح في السابعة صباحًا.. ارتدت ملابسها الرياضية استعدادًا لرياضتها الصباحية اليومية.. تذكرت أنها كانت قد ضبطت هاتفها المحمول على وضع الصامت قبل نومها.. التقطته من على (الكومود) وأعادت تشغيله.. ظل الهاتف يصدر أصواتًا متتالية لإشعارات الرسائل الواردة عليه.. كان هناك رسالة نصية من نانسي تخبرها بموعد قدومها للإسكندرية في نهاية الإسبوع.. ابتسمت سارة وبدا عليها السعادة الحقيقية.. تفتقد صديقتها نانسي وتشتاقها كثيرًا.. كما أنها بحاجة إلى الحديث معها عن كل ما مرت به مؤخرًا.. كانت نانسي تعرف بانفصال سارة وعمر.. أخبرتها سارة بالأمر في مكالمة

هاتفية سريعة ولكنها لم تتطرق معها للأسباب التي أدت إلى ذلك.. لم تشأ سارة أن تزعج صديقتها وتعكر عليها صفو حياتها الهانئة مع زوجها ميشيل مكسيم.. تذكرت سارة ذلك اليوم الذي التقت فيه نانسي ذات صباح دافىء من صباحات الإسكندرية.. لتخبرها نانسي أنها أخيرًا وقعت في الحب.. لم تصدق سارة أذنيها من فرط اندهاشها.. ولكنها سعدت بالخبر.. كانت في ذلك لا تزال في أوج علاقتها العاطفية بعمر يستعيدان معًا ذكريات أنطونيو جيانو وسارة سمعان.. حكت لها نانسي عن ذلك الرجل الذي تسلل خفية إلى قلبها وهدم جميع حصونه العتيدة والذي أقنع عقلها في الوقت ذاته فامتلك كيانها..

ميشيل مكسيم.. لبناني أربعيني.. يمتلك بيتًا من بيوت الأزياء الشهيرة في بيروت.. جاء في زيارة عمل

للإسكندرية.. تحديدًا للمشاركة في أحد عروض الأزياء.. التقى بنانسي مصادفة أثناء التجهيز للعرض الرئيسي.. تحدثا في أمور شتى.. أعجب بثقافتها ولباقتها.. كما راق له جمالها.. نشأت بينهما علاقة صداقة في البداية.. توطدت أواصرها و تحولت بعد ذلك إلى حب متقد.. عرض عليها الزواج والسفر معه إلى بيروت.. وافقت.. أقاما حفل زفافهما بفندق سان ستيفانو الشهير بالإسكندرية وأمضيا فيه عشرة أيام.. ثم سافرا إلى بيروت..

وأخيرًا يا نانسي سأراكِ.. أوحشتني كثيرًا.. تمتمت سارة بتلك الكلمات وهي تقلب في رسائل الهاتف التي لم تقرأها بعد.. تصفحت رسائل messenger بلا اهتمام.. لم تجد بها جديدًا.. فتحت تطبيق whatspp.. وجدت رسالة من أبيها المقيم في لندن يطمئن عليها كعادته اليوميه ويرسل لها قبلاته

وأشواقه.. أرسلت له ردًا عليها أن كل أمورها على ما يرام.. وقبلات كثيرة.. تصفحت باقي الرسائل سريعًا إلى أن رأت إسم ياسر زهران في إحداها.. فكرت لوهلة أن تحذفها دون أن تعرف محتواها ولكن دفعها فضولها لفتح الرسالة وقراءتها.. هالها ما قرأت.. أعادت قراءته عدة مرات متتالية لتتأكد من سلامة نظرها.. وأن الرسالة حقيقة واقعة على هاتفها المحمول وليست دربًا من دروب خيالها.. تسارعت أنفاسها وهي تعيد قراءة إسم دانيال سولومون مرة بعد الأخرى.. أي عبث هذا الذي تعيشه.. وإلى متى ستظل لعنة تلك الفتاة تطاردها.. كادت تكتبت له ردًا على رسالته ولكنها عدلت عن ذلك واتصلت به.. وجدت هاتفه مغلقًا.. أهي مزحة سخيفة أخرى منه؟.. أعادت الاتصال برقمه لتسمع ذات الرسالة الصوتية بأن الهاتف مغلق..

غادرت منزلها وهي في حالة من الذهول.. اتصلت بنديم نصار.. وطلبت منه اللقاء وهي تبكي.. أفزعه صوتها ونحيبها.. كان في مكتبة الإسكندرية مع بعض طلابه لإعداد بحث ما.. قادت سيارتها متجهة إلى حي الشاطبي للقائه في المكتبة..

في مقهى سلينترو الملحق بالمكتبة والمطل على البحر جلست سارة يرافقها نديم.. ظلت صامتة لبرهة وهي تتأمل البحر في الناحية المقابلة من الطريق.. بينما نديم يقرأ رسائل ياسر زهران..

- الأمر بسيط يا سارة.. كما أنه ليس بجديد عليكِ.. من رأيي أن تواجهيه..

تنهدت وهي تستمع لنديم وتذكرت جدها لأمها حين نصحها من قبل بمواجهة الماضي حين شاهدت عمر سراج لأول مرة على شاشة التليفزيون يتحدث عن إحدى رواياته.. *"لا بد أن تواجهي الماضي يا سارة لكي تتمكني من عيش حاضركِ في سلام نفسي.. ومن المؤكد أننا سنلتقي مجددا في حياة ثانية"* .. كانت تلك كلماته الأخيرة لها قبل أن يسلم الروح.. وها هو نديم يعيدها عليها من جديد ولكن هذه المرة لتواجه ياسر زهران وتتخلص من ذلك الماضي المعلق بينهما على مشجب الزمن.. لو صح ما باح لها به ياسر من أن روحه عاشت من قبل حياة دانيال سولومون.. ربما كان كاذبًا.. من يدريها.. وربما قرأ رواية متروبول وادعى هذا الأمر الآن لكي يجد حجة للتقرب منها بعد أن أعيته جميع الحيل من قبل.. تذكرت فجأة ما ذكره عن دانيال سولومون في ذلك المساء الذي دعاها فيه للعشاء في مطعم سانتا

لوتشيا.. ابتلعت ريقها في قلق.. ماذا لو كان صادقًا؟.. في جميع الأحوال عليها أن تتحدث معه لكي تعرف الحقيقة وتخرج من دائرة الماضي التي لا تزال تدور فيها بلا انتهاء..

كانت شاردة إلى الحد الذي لم تلحظ نظرات نديم المتيمة بها.. فكر أن يعترف لها بحبه ولكنه آثر الانتظار حتى تطوي صفحة الماضي إلى الأبد.. ابتسم لها معتذرًا يستأذنها في الانصراف للعودة إلى طلابه داخل أروقة المكتبة.. هزت له رأسها متفهمة وشاكرة وابتسامة باهتة ترتسم على شفتيها.. غادرها وظلت تجلس بمفردها في المقهى تحتسي قهوتها التركية بدون سكر كما اعتادت وتحدق في الأفق البعيد علّها تجد برًا تحط عليه رحالها التي أثقلت كاهل أيامها..

انتفضت على صوت إشعار لرسالة على هاتفها المحمول تخبرها أن هاتف ياسر زهران قد تم إعادة تشغيله.. التقطت الهاتف بيد مرتعشة واتصلت برقمه.. جاءها صوته منهكًا وكأنه بات ليلته يصارع الماضي الذي دائمًا ما يصرعه.. وبصوت مرتجف طلبت منه مقابلته.. أخبرها أنه في العين السخنة ولن يعود إلا بعد بضعة أيام.. وبذات الصوت المرتجف طلبت منه إرسال موقعه (اللوكيشن) على رسالة واتساب لتذهب إليه..

(٣٥)

في ذلك الصباح البعيد كنت أستقل الترامواي ذاهبًا إلى البنك الذي يديره السيد ديفيد موردخاي لأمر ما.. كنت أقف إلى جوار نافذته أشاهد الشوارع والناس كعادتي كلما ركبته.. حين توقف الترامواي في محطة الرمل.. رأيتك معه.. كنتِ في كامل أناقتك كعادتك.. جميلة أنتِ دائمًا وشهية.. كان يلف ذراعه حول خصرك باشتهاء.. لم تنهريه ولكنكِ ازددت التصاقًا به غير مبالية بتلك الأعين المحيطة بكما.. لا أستطيع وصف حجم الألم الذي شعرت به في تلك اللحظة.. أحسست برغبة عارمة في البكاء ولكن دموعي أبت الانهمار وسط الزحام من حولي.. تمزق كياني كله يا سارة آنذاك.. ليست الغيرة التي أوجعتني آنذاك ولكنه

الفراغ الموحش الذي خلفته وراءك في نفسي.. أعلم أني قلت لكِ (أحبك) ربما عشرات المرات.. ولكني لم أقل لكِ إن الحياة بدونك موت مؤكد.. مات كل شيء بداخلي حين رأيتكما بعيني في ذلك اليوم.. وظللت أعيش الموت في كل يوم من بعده.. لم أتبين ملامحه جيدًا في ذلك الصباح البائس.. ولم أستطع أن أمنع نفسي من تتبعك في كل مرة كنتِ تلتقين به.. وكأني كنت أمعن في تسديد طعناتك الغادرة إلى قلبي في كل مرة كنتُ أراكِ متلبسة بعشقه.. جرمك المشهود الذي لم تخفه كما كنتِ حريصة دائمًا على إخفاء علاقتك بي سابقًا وكأني تهمة تتبرأين منها أمام قلبك.. أتعلمين كم المعاناة التي تسببتِ لي بها يا حبيبتي السابقة والدائمة.. أتدرين كم العذاب الذي أذقتني إياه بخداعك لي.. بالطبع لا تعلمين شيئًا ولم تهتمي بأمري وما آل إليه حالي بعد هجرانك لي.. لقد تبدل الفتى الذي عشقك بكل كيانه.. لم يعد حالمًا كما

كان.. أصبح خاويًا على عروشه.. ورويدًا امتلأ هذا الخواء برغبة متأججة في الانتقام منه ومنكِ أيضًا.. ولكني لم أكن اهتديت إلى ذلك سبيلًا بعد.. بالطبع كنت قد عرفت من يكون وحفظت ملامحه عن ظهر قلبي المقهور.. المصادفة وحدها قادتني إلى طريق الانتقام الذي كنت أنشده.. حين أراني عزرا صورته وأخبرني بتكليف السيد ديفيد موردخاي له بمراقبته.. عرفت من عزرا أن الرجل الذي همتِ به عشقًا ما هو إلا جاسوس يعمل لصالح قوات المحور.. ويتعاون مع جيش الرايخ وجنوده المتمركزين على الحدود الغربية للإسكندرية.. كان عزرا قد عرض عليّ سابقًا العمل معه ومع السيد موردخاي في تلك المهمة السامية كما كان يطلق عليها.. العمل من أجل حمايتنا نحن اليهود وحماية مصالحنا في المدينة.. لم يكن يشغلني الأمر من قبل.. فلم تكن يهوديتي محل تهديد بالنسبة لي ولا وجودي في الإسكندرية كذلك..

ولكني قبلت بعدما رأيت صورة أنطونيو (ماريو) جيانو.. ساروتني شكوك كثيرة حولكِ أنتِ أيضًا.. خلتكِ تتجسسين علينا جميعًا لصالح أعدائنا.. مرت عليّ ليال طوال أقض الشك فيها مضجعي وأنا أراكِ بعين خيالي تتأوهين بين ذراعيه من فرط اللذة في مقابل ما يحصل عليه منكِ من معلومات عن بني جلدتك.. كرهتك.. ولعنتك.. ولعنت قلبي الذي ما زال ينبض بحبك في خجل.. ثم عرفت بمأساتك من أخي جايكوب.. أخبرني جايكوب عن زيارتك له في عيادته وعن تلك الكذبة التي كذبتها على عشيقك أنطونيو حتى لا يهجرك.. أخبرني عن الجنين الذي تحملينه منه وعن خوفك من مواجهة عائلتك التي هربتِ منها لترافقي ذلك الرجل إلى المجهول.. عرفت حينها أنكِ تجهلين من يكون.. ولا تدرين شيئًا عن حقيقته.. نسيت كرهي لكِ.. تلاشى حقدي عليكِ كله في لحظة واحدة.. لم

يبق بداخل قلبي تجاهك سوى ذلك الحب الكبير الذي أحببته لكِ وما زلت.. غادرت منزل عائلتي مسرعًا للبحث عنكِ.. كنت على استعداد لأفعل أي شيء لإنقاذك من براثنه.. الموت فداء لكِ يا غاليتي لم يكن سوى ثمن بخس لحياتك.. كان آخر ما أذكره هو ملامح وجهك الفزعة حين أفرغ ذلك الجندي الألماني رصاصات بندقيته في صدري.. وعيناك المشفقتان على حالي وصرختك المدوية كانوا هم كل ما حملته معي من متاع في رحلتي للعالم الآخر..

(٣٦)

انتهى ياسر من كتابة تلك الرسالة التي قرر أن يسلمها لسارة بنفسه.. طوى الوريقات التي كتبها ووضعها في مظروف أنيق أحكم إغلاقه.. حين طلبت منه سارة موقع الشاليه في العين السخنة أشفق عليها من قطع كل هذه المسافة من أجل أن تعرف منه بعض التفاصيل التي لن تسمن ولن تغني من جوع.. طلب منها أن تنتظره بعد ساعات في المنتزه ووعدها بلقائها هناك.. كان قد عزم على مغادرة الإسكندرية بعد لقائها.. رتب كل شيء للتوجه إلى ألمانيا ليستقر بها بعض الوقت إلى جوار ابنته..

جلست سارة في سيارتها في الشارع المقابل لكوبري المنتزه تنتظر وصول ياسر.. تأملت بإعجاب غابة الأشجار التي صور فيها المطرب الراحل عبدالحليم حافظ أغنيته الشهيرة (أحضان الحبايب).. كل شيء في المكان يدعو للتأمل.. ما زال المنتزه يحتفظ بهدوئه وجماله ورقيه.. شعرت بشيء من الحسرة لما أصاب الإسكندرية من تشويه وتدمير.. ترجلت من سيارتها واتجهت ناحية البحر عابرة للكوبري في اتجاه الممشى.. رأت بعض الكبائن التي تم هدمها.. ظلت تحدق في الركام وهي تفكر في ذلك التاريخ البعيد الذي رافقت فيه سارة سمعان أباها إلى ذلك الحفل الملكي بقصر المنتزه والذي التقت فيه أنطونيو جيانو لأول مرة.. ملأت رئتيها بالهواء النقي ثم استأنفت المسير حتى وصلت إلى الممشى ووقفت تتأمل المدينة بأكملها من البقعة التي تقف عليها.. تبدو جميلة من هذي المسافة البعيدة.. يبدو أن المسافات تزيد الأشياء

بهاء وسحرًا.. أو تحجب عنا تلك التفاصيل التي لا نرغب في رؤيتها.. تذكرت مقولة أن الحب هو ذكاء المسافة.. اقتربت كثيرًا من عمر فأدى ذلك القرب إلى إصابة علاقتهما بسكتة عاطفية.. فكان البعاد طويلًا بحثًا عن نسيان لم تألفه بعد.. رن هاتفها المحمول وظهر إسم ياسر زهران على شاشته.. أجابته على الفور.. أبلغها أنه وصل إلى بوابة المنتزه وأخبرته أنها تنتظره على الممشى..

كان لقاؤهما باهتًا.. لا حرب ولا سلام.. صافحته بيد باردة وصافحها بيد فقدت كل معاني اللهفة.. أطل سؤالها المتردد من عينيها.. أخرج من جيب سترته تلك الرسالة التي كتبها لها وأعطاها إياها بابتسامة شاحبة.. سألته عن محتواها مستفهمة.. طلب منها أن تقرأها بعد انصرافه.. وغادرها للأبد.. وكأنه لم يلتقيها قط.. فضت المظروف وبدأت تقرأ

الرسالة وهي تجلس على المقعد الخشبي الوحيد الموجود أمام الممشى.. انسابت دموعها بغزارة بعدما انتهت من قراءتها.. حاولت الاتصال به ولكنها وجدت هاتفه مغلقًا مجددًا.. طوت الرسالة وأعادتها إلى المظروف مرة أخرى ثم وضعتها في حقيبة يدها.. رن هاتفها فأجابت متلهفة دون أن تنظر إلى شاشته.. ظنت أنه ياسر.. ربما يمنحها القدر فرصة للاعتذار.. ولكنها فوجئت بصوت ذلك الغريب الذي لم تسمع صوته من قبل عبر أثير الهاتف ولكن أذنها احتفظت بنبرات صوته الدافئة منذ تلك الأمسية.. جففت دموعها وابتسمت بصفاء وهي تجيبه.. كان يحيى غريب.. خفق قلبها بشدة من المفاجأة وهو يطلب منها اللقاء في المساء..

(٣٧)

في مكتب يتسم بالذوق الرفيع بذلك الفندق الفخم سان ستيفانو كان يجلس لويجي ستاينشيندر يراجع بعض الملفات الخاصة بالفندق ويبتسم في زهو وفخر.. تذكر سخرية البعض من بوجوس نوبار حين عزم على بنائه.. وضحك هازئًا.. لم يفشل الفندق كما توقع الساخرون.. بل أصبح من أفضل الأماكن التي يقصدها أثرياء الإسكندرية وصفوتهم للنقاهة والاستشفاء والترفيه أيضًا واكتسب شهرة واسعة.. بدا راضيًا عن الإيرادات التي يحققها الفندق.. قام من على مقعده الوثير وعدل من هندامه ثم غادر حجرة مكتبه متجهًا إلى صالة القمار (الكازينو) ليتفقد أحواله ثم تجول في أرجاء الفندق ليطمئن أن العمل في كل جنباته يسير على أكمل

وجه.. التقى في طريقه أحد النزلاء الذي اعتاد ارتياد الفندق بين حين وآخر.. حياه بإيماءة مهذبة.. واستكمل جولته.. عرج على الحديقة.. كانت تعج بالنزلاء.. ابتسم مشجعاً للندُل الذين يروحون ويجيئون بين الطاولات بهمة ونشاط ثم عاد أدراجه إلى حجرة مكتبه..

على إحدى الطاولات كانت تجلس امرأة شابة تفوح الأرستقراطية من مظهرها.. وعلى المقعد المجاور لها يجلس طفل صغير إسمه موسى.. كانت المرأة منشغلة عن طفلها بقراءة كتاب باللغة الفرنسية.. بدأ الملل يتسرب إلى الطفل ولكن تربيتها الصارمة له حالت بينه وبين الشكوى.. بعد برهة قليلة من الزمن.. انضم لهما على الطاولة رجل مظهره يدل على الثراء الفاحش يرافقه زوجان شابان ومعهما ولد صغير في عمر صغيرها موسى.. وضعت المرأة الكتاب جانبًا

وارتسمت ابتسامة مرحبة على شفتيها.. بدت السعادة على وجه موسى وهو يصافح صديقه ديفيد.. التفت ديفيد إلى أبيه موردخاي..

- هل لنا أن نذهب للعب أنا وموسى يا أبي؟

- بالطبع يا بني ولكن لا تبتعدا عن أنظارنا كثيرًا..

سارا الصغيران معًا يتطلعان حولهما للمكان بانبهار.. كان سمعان يتابعهما بعينيه وموردخاي يحدثه عن تلك الأزمة التي أثارها الخديوي عباس حلمي الثاني مع الإنجليز بعد إقالته لوزارة مصطفى باشا فهمي والتي تحدى بها اللورد كرومر.. بينما كانت إحدى المرأتين تثرثر عن سعر الغرفة في الفندق الذي أصبح خمسة وعشرين قرشًا..

في ذات الحديقة وبعد مرور أعوام طويلة كانت تجلس امرأة شابة تدعى ليليان برفقة زوجها موسى سمعان وطفلة صغيرة جميلة إسمها سارة تركض حول الطاولة.. أشارت ليليان إلى زوجها ناحية ذلك القادم في اتجاه طاولتهما.. كان صديقه ديفيد موردخاي الذي ما إن رأته سارة حتى هرعت إليه.. حملها بين ذراعيه وطبعت قبلة صغيرة على خده.. ثم همست في أذنه بأنها ترغب في أن تصبح ممثلة.. ضحك موردخاي وسألها عن السبب.. عادت الصغيرة وهمست له بسرها مرة أخرى.. كنت ممثلة مشهورة من قبل.. ولكن لا تخبر أبي.. هز لها رأسه إيجابًا ثم أنزلها من على ذراعه وانضم لموسى سمعان وليليان.. وعاودت الطفلة دورانها حول الطاولة وهي تبتسم بإصرار على أن تحقق تلك الأحلام التي باتت تراودها كل ليلة..

(٣٨)

كان لا يزال جالسًا خلف مكتبه ممسكًا بقلمه بعد هجران طويل.. يكتب في أحد فصول روايته الجديدة (سان ستيفانو).. دخلت مديرة المنزل مهرة إلى حجرة المكتب وهي تحمل صينية صغيرة عليها فنجانان من القهوة وكوبان من الماء وتتقدمها غادة.. ابتسم عمر إلى غادة مرحبًا.. وضعت مهرة الصينية على سطح المكتب وانصرفت..

- أما زلت تكتب في الرواية الجديدة؟

- كدت أنتهي منها..

- أرجو ذلك.. أفتقدتك حقًا يا عمر..

– قريبًا.. قريبًا جدًا يا حبيبتي.. وسأقيم حفل توقيع في ذات الفندق أيضًا..

بدا عليها الانبهار.. وأطلقت صفيرًا خافتًا إعجابًا بما قاله..

– أتعني فندق سان ستيفانو..

– أجل يا غادتي الحسناء.. اتفقت مع الناشر على أن يكون أول حفل توقيع هناك..

– عظيم جدًا يا حبيبي..

أخرج عمر علبة قطيفة صغيرة لونها أحمر ومد يده بها إلى غادة.. نظرت إليه مستفهمة.. فتحها وأخرج منها سلسلة ذهبية يتوسطها إسم eve.. ابتسمت له بحب.. ألبسها

إياها.. تحسستها على عنقها وهي مغمضمة العينين ما زالت ابتسامتها الرائقة ترتسم على شفتيها.. أمسك كف يدها وطبع قبلة حانية على باطنه ونظر إلى خطوطه المتوازية ١١١ وابتسم ثم أغلقه على قبلته.. فتحت عينيها واحتضنته بهما وهي تسأله..

- أكنت تعرف إذن؟

- عرفت أثناء الغيبوبة..

- ولماذا لم تخبرني أنك عرفت بعدما أفقت مباشرة؟

- لم أشأ أن أفسد المفاجأة..

طوقت عنقه بذراعيها وأمطرت وجهه بقبلاتها.. أطل في عينيها المتوهجتين وهو يخبرها بالمفاجأة الثانية التي أعدها لها..

- سنقيم حفل زفافنا أيضًا في فندق سان ستيفانو..

ثم اقترب من أذنها وهمس بدفء..

- ما رأيك في إسم سيف لو رزقنا الله بصبي..

ضحكت بملء فيها وهي لا تزال تعانق قسمات وجهه بعينيها..

- وكأنك تقرأ ما يدور بذهني يا حبيبي..

- بل أكتب ما عشناه سويًا ذات حياة يا غادتي..

انتهى عمر من كتابة الرواية وأسلمها للناشر.. ولكنه في قرارة نفسه لم ينته من ذكرى تلك المرأة التي احتلت كيانه وأحلامه لسنوات طوال.. أبقاها حبيسة أوراقه وجدران قلبه.. فبعض النساء كالمدن يبقى عطرهن عالقًا في الذاكرة.. وسارة كانت له كل النساء وكل المدن..

أرسل لها رسالة نصية قصيرة.. كانت الرسالة الأخيرة.. أخبرها بأنه سيتزوج غادة في خلال أيام قليلة.. ردت عليه بكلمة واحدة.. (مبروك).. ثم حذفت رقمه من ذاكرة هاتفها ولكنها لم تستطع أن تمحو ذكراه من أيام عمرها..

(٣٩)

في غرفتها الواسعة وقفت الفتاة التي بلغت من العمر الثامنة عشرة سنة أمام مرآة التسريحة تنظر إلى فستانها الجديد في زهو وخُيلاء.. طرقت إحدى الخادمات طرقات خافتة ومنتظمة على باب حجرتها فسألتها المراهقة من خلف الباب المغلق بصوت ناعم..

- ماذا تريدين؟

- السيدة ليليان تريدك أن تنزلي إلى البهو مودموزيل سارة.. لقد أتى المصور من ستوديو التصوير لكي يلتقط لكِ صورًا كما رغبتِ..

هرولت سارة إلى الباب وفتحته ونزلت تركض إلى بهو الفيلا.. كانت مولعة بالتقاط الصور لها.. كما كانت تلك الممثلة المشهورة التي رأتها مراراً في أحلامها.. ستصبح ممثلة مشهورة مثلها وسيشير لها الجميع بالبنان.. لم تكن تعلم أن ما ظلت تراه في مناماتها طيلة سنوات عمرها الماضية ما هو إلا ظلال لحياة سابقة قد عاشتها من قبل في فرنسا حين كانت تعيش بإسم سارة برنار.. والتي كانت فتاة يهودية أيضًا ولدت في باريس..

التقط لها المصور عدة صور ووعدها بأن ينتهي من تحميضها في أسرع وقت.. جلست على أحد المقاعد الوثيرة في البهو وهي تفكر في أمر تلك الأحلام.. وترسم الخطط في عقلها لتحقيقها.. أمسكت مجلة فرنسية وأخذت تقلب في صفحاتها بذهن شارد.. لم ينتشلها من شرودها سوى صوت

أبيها وهو يتحدث إلى أمها ويخبرها عن الحفل الملكي الذي دعي إليه هو وديفيد موردخاي..

هبت سارة من جلستها وهرعت نحو والدها ترجوه وتستعطفه بدموعها أن تذهب معه إلى الحفل.. وبالرغم من الأمر لم يكن ممكنًا لكنه رضخ في النهاية أمام إلحاحها.. قرأت في إحدى الصحف خبرًا عن الحفل وعرفت أن فنانًا شهيرًا سيحضره.. أحست أن حلمها يكاد يتحقق.. وصممت على أن تفعل المستحيل من أجل تحقيقه..

في ليلة الحفل ما إن وصلت إلى القصر برفقة أبيها حتى طافت بعينيها هنا وهناك بحثًا عن ذلك الفنان التي أتت من أجل لقائه لتحقق حلمها من خلاله.. ولكنها أخفقت في التحدث إليه.. ارتبكت وتلعثمت وسخرت منها المرأة التي

تراقصه فزادتها ارتباكًا.. أسرعت تجري نحوالشرفة بخطوات مرتكبة ثم انفجرت في بكاء مرير.. لم تلمح ذلك المستند على الحائط يحتسي كأسه في تلذذ وينفث دخان سيجارته في هدوء.. اقترب منها وقدم لها نفسه..

- أنطونيو جيانو أعمل في مجال الإخراج السينمائي..

شهقت مندهشة وهي تضع يدها على فمها لتكتم صيحة فرح كادت أن تفر هاربةً من بين شفتيها.. راقصها فلم تمانع واستسلمت لذراعيه وهي تمني نفسها بتحقيق حلمها.. لم تفطن أبدًا أنه لم يكن قط حلمها هي.. ولم يدر بخلدها أن الطريق الذي خطت أول خطوة فيه لم يكن سوى طريقها للهلاك..

(٤٠)

أن تكون مختلفًا عن الآخرين يعني أن تدفع ثمن اختلافك في كل لحظة من لحظات حياتك.. حتى وإن كان الثمن هو شعورك بالغربة عن الزمان والمكان.. وأن تشعر بالغربة يعني أن تنصهر في بوتقة المعاناة الأبدية ولا تجد الخلاص إلا بخلاص روحك من أغلالها المادية المتمثلة في ذلك الجسد الذي تسكنه دون اختيار منها والذي يلزمها أن تستكمل دوره على خشبة ذلك المسرح العبثي المسمى بالحياة حتى النهاية وبإتقان شديد يرغم الجميع في نهاية الأمر على أن يصفقوا لبراعتك.. ويتساءلون في تعجب كيف تمكنت من البقاء على قيد تفردك دون أن تفقد ابتسامتك رغم أشواك الطريق..

منذ ذلك المساء الذي التقته فيه وهي منشغلة بالتفكير في أمره.. إنه مختلف بحق عن جميع من مروا في حياتها.. ترك بيت أسرته في القاهرة ورفض العمل في مكتب والده المحامي المعروف ليأتي إلى الإسكندرية ويقيم في بيت جده لأمه ويكرس كل وقته للدفاع عن قضية واحدة يؤمن بها وهي حق مدينته في البقاء على قيد الجمال..

إنه الغريب في زمنه.. يحيى.. حين اتصل بها في ذلك اليوم يطلب لقاءها في المساء لم تتوقع أن يتحدث إليها عن تلك التفاصيل التي قرأها في رواية متروبول.. أراد أن يعرف كل شيء عما كان عليه حال المدينة في الزمن الماضي.. كان يستمع إليها ويختزن ما تقوله في ذاكرته وكأنه يلتقط بعقله صورًا لذلك الماضي الجميل.. جعلها ترى الماضي بشكل مختلف..

وكأنه يمنحها صك غفران لكل آلام ذلك الماضي وأوجاعه..

– إن معرفة الماضي ضرورية لكي نتمكن من عيش الحاضر بحكمة.. فالحكمة وليدة المعرفه.. ليست المشكلة في الماضي في حد ذاته وإنما فيمن يسجنون أنفسهم في دائرته..

ابتسمت له متعجبة..

– وماذا عنك؟ ألا تسجن نفسك في دائرة الماضي بتلك الصورالتي تلتقطها لجميع تلك البيوت والمقاهي القديمة؟

ضحك حتى بدت نواجذه فبدا أكثر وسامة وجاذبية.. أخبرها أن الأمر يختلف.. فهو لا يلتقط تلك الصور لكي يسجن نفسه في ماضيها ولكن لكي يحتفظ بتاريخ

الإسكندرية الجميل قبل أن تغتال يد التدمير ما تبقى منه.. هو ليس ضد أي تطوير للمدينة بل على العكس التجديد سنة الكون.. ولكن ثمة فرق شاسع بين التشويه والتجديد.. فما يحدث في الإسكندرية الآن لهو جريمة تشويه مكتملة الأركان.. وتعمد واضح لمحو تاريخ المدينة.. أتم حديثه وابتسم بأسى..

كانت تزداد إعجابًا به كلما زادها من حديثه.. كان يتحدث عن مدينته وكأنه عاشق متيم.. تعددت لقاءتهما.. وفي كل مرة تلتقيه كانت تغوص أكثر وأكثر في عالمه الساحر وترى الإسكندرية وكأنها لم ترها من قبل.. كان يبهرها دائمًا بما يرويه لها من حكايات عن هذه المدينة وعن عشاقها الكثر.. حكى لها عن المعماري أنطونيو لا شاك.. وأراها ما تبقى من المعمار الذي شيده ذلك العاشق للإسكندرية.. المدينة التي

أصبحت قضيته الوحيدة في الحياة وشغله الشاغل وعشقه الأبدي الذي توارثه عن جده..

طاف بها في كل شبر منها والتقط لها صورًا تذكارية أمام كل بناية جميلة باقية.. أخبرها أنها المرة الأولى التي يشرك فيها فتاة أو امرأة في صوره التي يتلقطها لمعمار الإسكندرية التاريخي.. ابتسمت له ممتنة.. كانت عيناه تنطقان بما لم يبح به من مشاعر.. واكتفت هي بما قرأته من سطور في كتاب عينيه..

اصطحبها للعشاء قبل سفرها بليلة.. وظل يتنقل بها من حكاية لأخرى عن معشوقته الإسكندرية.. لم تمل حديثه لحظة واحدة.. بالرغم من أنه جاء مخيبًا لآمالها.. كانت تمني نفسها به قبل لقائه في ذلك المساء أن يبوح لها بمشاعره التي

تنطق بها عيناه كلما التقيا.. تمنت لو اعترفت له بحبها كذلك.. ولكنها آثرت الكتمان أيضًا كما آثره..

انتهيا من العشاء وأوصلها بسيارته إلى منزلها دون حديث طيلة الطريق وكأنه يخشى لو تحدث أن يبوح بما يحاول كتمانه.. وقبل أن تغادر السيارة منحها صندوقًا خشبيًا أنيقًا به جميع صورها التي التقطها لها في الأيام الماضية..طبع الصور بالأبيض والأسود.. وربطها بشريط حريري أبيض.. أبهرتها المفاجأة.. غادرته وهي تضم الصندوق إليها في سعادة طفلة تتذوق طعم الحلوى لأول مرة.. التفتت إليه قبل أن تدخل من باب العمارة التي تقطن بها ومنحته ابتسامة شاكرة.. بادلها الابتسام وقال لها بنبرة ضاحكة ممزوجة باللهفة..

– سأنتظر عودتك إلى الإسكندية مرة أخرى.. لا يزال هناك الكثير من الحكايات التي لم أروها لكِ بعد..

– سأعود حتمًا.. فروحي لا تزال معلقة بها.. وقلبي ما زال يسكنها..

انطلق بسيارته مبتعدا عن بنايتها.. ظلت تقف مكانها تتابعه بعينيها حتى توارى عن أنظارها.. ضمت إليها الصندوق الخشبي وكأنها تحتضن ذكرياتها التي أهداها لها هذا الغريب الذي انشق عنه بحر الإسكندرية ليحيى خالدًا في ذاكرتها..

ولحكايات الإسكندرية بقية..

ريم أبو عيد

عضو اتحاد كتاب مصر

كاتبة وروائية وسيناريست مصرية

مؤلفات:

- ذات حلم (ديوان نثر)
- امرأة فوق العادة (ديوان شعر)
- على إسم مصر (كتاب وثائقي مصور)
- حالة هذيان (ديوان)
- على هامش العاصفة (رواية)
- كونشيرتو الحب والمطر (ديوان نثر)
- بروتوكول سيفر (مجموعة مقالات)
- متروبول (رواية)
- عاهات فيسبوكية (كتاب ساخر)

سيناريوهات أفلام:

- متروبول (سيناريو وحوار فيلم سينمائي)
- في بيتنا كلب (سيناريو وحوار فيلم سينمائي)
- ليو (سيناريو فيلم قصير صامت)

للتواصل مع الكاتبة

E-mail: aboueid.reem@hotmail.com

Official Facebook Page: writerreemaboueid

Personal Profile: reemaboueid